مفاتيح السور

الجزء الاول

عبدالحي حسين محمد الفرماوي

مفاتيح سورة الفاتحة

أولاً:اسم السورة

لهذه السورة:عدة أسماء...منها(١):

١ – الفاتحة

وهذا هو أشهر أسمائها.

٢ــ فاتحة الكتاب:

وذلك؛ لأنه يفتتح بها في قراءة القرآن لفظًا، وفي المصحف خطًا ،ويفتتح بها– كذلك – في الصلوات.

وقيل: لأن الحمد فاتحة كل كلام.

ويقول الألوسي: هي: "فاتحة الكتاب " ؛ لأنها مبدوءة على الترتيب المعهود ،لا لأنها يفتتح بها في التعليم وفي القراءة في الصلاة كما زعمه السيوطي.

٣ – أم القرآن :

وذلك؛ لأنَّ الابتداء بها كتابة ، أو تلاوة ،أو نزولا ــ على قول ــ أو صلاة بها ... وما بعدها تالٍ لها ؛ فهي كالأم التي يتكوَّن الولد بعدها .

أو :لاشتمالها على مقاصد المعاني التي في القرآن ، من الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، ومن التعبد بالأمر والنهي ، ومن الوعد والوعيد .

وقد كره بعض السلف أن يقال: "أم القرآن " ..وذلك لحديث ، لا أصل له.

٤ – سورة الحمد:

وذلك؛ لأن فيها ذكر الحمد ، واشتمالها عليه، كما يقال: سورة "الأعراف" و "الأنفال" و "التوبة" ونحوها .

٥– الشفاء:

وذلك؛ لما رواه الدارمي في سننه ، من قول النبي صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب :شفاء من كل داء "(٢)

٦– الرقية :

وذلك؛ لما ثبت من حديث أبي سعيد الخدري ، وفيه:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال للرجل الذي رقى سيد الحي : ما أدراك أنها رقية ؟ فقال :يا رسول الله ...ألقي في روعي .." الحديث(٣)

٧– الأساس :

وذلك؛ لأنها أصل القرآن ، وأول سورة فيه .

٨– الوافية :

وذلك؛لأنها وافية بما في القرآن من المعاني.

وقيل:لأنها لا تقبل التنصيف ، فإن كل سورة من القرآن : لو قرئ نصفها في كل ركعة والنصف الثاني في أخرى ؛ لجاز ، بخلافها .

وقيل: لأنها جمعت بين ما لله وبين ما للعبد .

٩– الكافية :

وذلك؛ لأنها تكفي عن سواها ، ولا يكفي سواها عنها ،في صحة الصلاة ، بخلاف غيرها عند القدرة عليها .

١٠ – الشافية :

وذلك؛ لأن الأحاديث الصحيحة مشعرةٌ بذلك .

وهناك غير ذلك من الأسماء ما يلي :

١١ – فاتحة القرآن:

وذلك؛ لما ذكر في التعليل لاسم "فاتحة الكتاب"

١٢ – الصلاة :

وذلك، لقوله تعالى في الحديث القدسي: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين الحديث (٤)
وهو من باب : تسمية الشيء بمعظم أركانه .

١٣ – سورة الصلاة :

وذلك؛ لتوقف الصلاة عليها .

١٤ – أم الكتاب :

وذلك؛ لنفس التعليل ، وبنفس الخلاف المذكور ، عند تسميتها ب"أم القرآن "

١٥ – القرآن العظيم :

وذلك؛ لاشتمالها على المعاني التي في القرآن ، وتضمنها جميع علوم القرآن ، حيث إنها تشتمل على : الثناء على الله عز وجل بأوصاف كما له وجلاله ،وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والإعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانته تعالى ، وعلى الابتهال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم ..إلخ.

١٦ – السبع المثاني :

وذلك؛ لأنها سبع آيات باتفاق ، وليس لها مشارك في القرآن في ذلك سوى سورة أرأيت الذي يكذب بالدين .

وقيل: لأنها تثنى في كل ركعة ، أو : لأنها تثنى بسورة أخرى ،أو لأنها نزلت مرتين ، أو لأنها على قسمين : ثناء ، ودعاء ، ..إلخ

ولها من الأسماء كذلك :

١٧ – سورة الشكر :

وذلك؛ لاشتمالها على الشكر لدى من أنعم الله عليهم بالفهم.

١٨ – سورة الكنز :

وذلك؛ لاشتمالها على الجواهر المكنوزة فيها .

ولما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أنه قال:"نزلت فاتحة الكتاب بمكة ،من تحت كنز العرش"

١٩ – سورة الدعاء :

وذلك ؛ لاشتمالها عليه ،في قوله تعالى: "اهدنا"

٢٠ – سورة السؤال:

وذلك ؛ لاشتمالها على سؤال رب العالمين الهداية إلى الصراط المستقيم.

٢١ – سورة تعليم المسألة ؛

وذلك : لأن فيها آداب السؤال ؛ حيث بدأت بالثناء قبله .

٢٢ – سورة المناجاة :

وذلك؛ لأن العبد يناجي فيها ربه ، بقوله تعالى إياك نعبد وإياك نستعين

٢٣ – سورة التفويض:

وذلك؛ لأن العبد يفوض إلى ربه في قوله تعالى ..وإياك نستعين

٢٤ – النور :

وذلك؛ لظهورها بكثرة استعمالها، أو لتنويرها القلوب ، لجلالة قدرها ، أو لما اشتملت عليه من المعاني ، التي هي عبارة عن النور ،بمعنى القرآن .

ويذكر الإمام القرطبي – من أسمائها – كذلك :

٢٥ – المثاني:

وذلك؛ لأنها تثني في كل ركعة .

وقيل: لأنها استثنيت لهذه الأمة – دون غيرها – ذخرًا لها .

ويذكر الإمام مجد الدين الفيزوزبادي – من أسمائها – كذلك:

٢٦ – سورة الثناء

٢٧ – الحمد

٢٨- أساس القرآن
٢٩- سورة أم القرآن
٣٠- سورة أم الكتاب
٣١- سورة الأساس

ويذكر الإمام السيوطي -من أسمائها - كذلك :

٣٢- سورة الحمد الأولى
٣٣- سورة الحمد القصرى .

ويلاحظ في نهاية ذكر هذه الأسماء -كما يبدو- أن فيها بعض التكرار ، بسبب إضافة كلمة سورة إلى الاسم أحيانا ، أو تجريده منها ، وغير ذلك.

ثانيًا : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

أ- عدد آياتها : سبع بالإجماع.(٥)

بيد أن المكيين والكوفيين منهم :عدوا (البسملة) آية ،دون: "أنعمت عليهم" .
وأما المدنيون والبصريون منهم فقد عكسوا؛ فعدُّوا: "أنعمت عليهم" آية،دون(البسملة)(٦)
وشذ قوم ،فقالوا : ثمان آيات .
وشذ آخرون ، فقالوا : ست آيات.(٦)

ب- عدد كلماتها : (٢٥) خمس وعشرون كلمة .(٥)

جـ- عدد حروفها : (١٢٣) مائة وثلاثة وعشرون حرفا.(٧)

وإذا كان هذا العدد الذي ذكره العلماء ـ منذ القدم - في كتبهم ؛ هو هو الذي بين أيدينا ، وفي مصحفنا اليوم.."
فلا معنى لذلك سوى أن آيات وكلمات وحروف هذه السورة - وكذلك كل سور القرآن - هي هي التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يدخلها: تعديل بزيادة أو نقص ،أو تحريف بالرغم من :
مرور القرآن الكريم بمراحل الجمع المتعددة ، ونسخه المجهدة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الأطهار .."
ومرور المصحف الشريف بدور المطابع ، وكثرة طبعه فيها ، بعد أن وجدت الطباعة.."
وعدم سلامة أية كتب - غير القرآن - من الزيادة أو النقص عند إعادة طبعها .."
وليس من مرد لذلك ، وسبب فيه ،إلا : حفظ الله تعالى لكتابه مصداقا لقوله تعالى إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [الحجر ٩]

ثالثًا : ترتيب السورة في المصحف و في النزول

لكل سورة من سور القرآن الكريم : ترتيبان
ترتيب في النزول على النبي صلى الله عليه وسلم
وترتيب في وضعها في المصحف الشريف .

حيث إن القرآن الكريم :كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم على حسب الحوادث والوقائع ، وما تقتضيه الأحوال ، وتدرج التشريع .
سواء أكان ذلك في السور ، أم في الآيات داخل السور .
ثم كان صلى الله عليه الصلاة والسلام يرتبه – بعد ذلك – بوحيٍ من الله تعالى ، وتوقيفٍ له سواء أكان ذلك في الآيات – باتفاق االعلماء – أم كان في السور ، على خلافٍ بينهم ،الراجح فيه أنه توقيفي كذلك
ومن هنا : فترتيب سورة الفاتحة (المكية):
أ – في المصحف : الأولى ... قبل سورة "البقرة".
ب– في النزول : بعد سورة "المدثر" ،وقبل "المسد".

رابعًا : سبب نزول السورة

ليس من الضروري : أن يكون لكل سورة من سور القرآن الكريم ..سبب نزول .
حيث إن القرآن الكريم :
كانت بعض سوره وآياته : تنزل ابتداءً للتشريع والهداية ، دون سبب مباشر للنزول .
و البعض الآخر من سوره وآياته : ينزل بسبب من أسباب النزول ، المذكورة في مظانها .
وسورة الفاتحة : من النوع الذي لم يذكر العلماء سببًا لنزوله .

خامسًا : مكية السورة و مدنيتها

قسم العلماء القرآن الكريم إلى مكي ومدني .
وكان تعريفهم للمكي والمدني ، بواحد من اعتبارات ثلاثة :

١ – باعتبار المكان ..أي : ما نزل بمكة وما حولها ، فهو :مكي ، وما نزل بالمدينة وما حولها ،فهو :مدني.

٢ – باعتبار المخاطبين ..أي ما كان خطابًا للمشركين وعموم الناس ، فهو: مكي، وما كان خطابًا للمؤمنين أو المنافقين أو أهل الكتاب ، فهو : مدني .
٣ – باعتبار الزمان؛ (أي زمان الهجرة) فما كان قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو مكي ، وما كان بعدها ، فهو مدني .

والراجح والأقوى من ذلك : ما كان باعتبار زمان الهجرة .

وعلى ذلك؛
فسورة الفاتحة :
أ– قيل :هي مكية.
وهو الصحيح.
ودليل ذلك:أنه لا يعرف في الإسلام صلاة بغير فاتحة الكتاب .(٦)
وهو: رأي الأكثرية من العلماء .(٨)
بل ذهب بعضهم إلى :أنها أول ما نزل من القرآن .(٩)

ب- وقيل : هي مدنية ، واشتهر ذلك عن مجاهد .(٨)
وهو قول:ضعيف.

جـ- وقيل : إنها نزلت مرتين.(٨)
مرة بمكة :عند فرضية الصلاة ،ومرة بالمدينة :حين حولت القبلة .
ولهذا قيل لها :السبع المثاني ؛ لأنها ثنيت في النزول .(٦)
وكأن صاحب هذا القول أراد أن يجمع بين القولين السابقين ، وليس هذا القول بشيء.(١٠)

والبعض يرى ، أن :جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها في مكة ، وبثوابها في المدينة .

د- وقيل نزلت نصفين ، نصفها بمكة ، ونصفها بالمدينة.

والقول الأول :هو الأصح كما ذكرنا. (١١)

سادسًا : فضل السورة

يتجلى فضل هذه السورة من تلكم الآثار الواردة في ذلك ، ونسوق فيما يلي ، بعضًا منها :
أ- قال تعالى: {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم} الحجر ٩
ب- وأخرج البخاري عن أبي سعيد بن المعلى أنه قال : كنت أصلي ، فدعاني النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم أجبه ،قلت : يا رسول الله إني كنت أصلي ،قال : "ألم يقل الله": { استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم }[الأنفال:٢٤]
ثم قال :" ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟ فأخذ بيدي" ،فلما أردنا أن نخرج ،قلت : يا رسول الله ، إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن ، قال: الحمد لله رب العالمين هي: السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته (١٢)
جـ- وأخرج مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يقول : ...
قال الله تعالى : قسمت الصلاة(١٣) بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل،
فإذا قال العبد {الحمد لله رب العالمين}
قال الله تعالى :حمدني عبدي
وإذا قال{ الرحمن الرحيم }
قال الله تعالى : أثنى علي عبدي
وإذا قال:{مالك يوم الدين}
قال :مجدني عبدي ، – وقال مرة فوض إلي عبدي –
فإذا قال :{ إياك نعبد وإياك نستعين }
قال: هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل .
فإذا قال{ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين }
قال :هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل . (١٤)
د- وأخرج مسلم عن ابن عباس قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم ، سمع نقيضًا من فوقه(١٤) ، فرفع رأسه ،فقال : هذا باب من السماء فُتح اليوم ، لم يُفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض ، لم ينزل قط إلا اليوم ،فسلم ، وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته

هـ- أخرج البخاري عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا: آمين ،فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه (١٦)

و- عن أبي سعيد الخدري قال : كنا في مسير لنا فنزلنا ، فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحي سليم ،وإن نفرنا غيب ، فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية ، فرقاه فبرأ ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبنا ، فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن رقية ، أو كنت ترقي؟ قال : لا ، ما رقيت إلا بأم الكتاب ، قلنا :لا تحدثوا شيئا حتى نأتي ، أو نسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :وما كان يدريه أنها رقية ؟ اقسموا واضربوا ليَ بسهم

ز- ومن طريف ما يذكر في فضائل هذه السورة : أنها خلت من سبعة حروف.

هي :

الثاء :

إشارة إلى الثبور كما في قوله تعالى:{ لا تدعوا اليوم ثبورًا واحدا وادعوا ثبورًا كثيرًا} [الفرقان :١٤]

الجيم:

إشارة إلى جهنم كما في قوله تعالى{ وإن جهنم لموعدهم أجمعين }[الحجر:٤٣]

الخاء:

إشارة إلى الخزي كما في قوله تعالى يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه [التحريم: ٨]

الزاي:

إشارة إلى الزفير .

والشين:

إشارة إلى الشهيق. كما في قوله تعالى { لهم فيها زفير وشهيق } [هود: ١٠٦]

الظاء :

وهو اللظى ، كما في قوله تعالى { كلا إنها لظى }[المعارج١٥]

والفاء:

إشارة إلى الفراق كما في قوله تعالى{ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون } [الروم: ١٤]

فكأن الله عز وجل لما اسقط من الفاتحة هذه الحروف الدالة على العذاب ، وهي بعدد أبواب جهنم المذكورة في قوله تعالى لها سبعة أبواب{ لكل باب منهم جزء مقسوم } [الحجر :٤٤]

غلب الظن أن من قرأ الفاتحة ؛ نجا من جهنم ودخول أبوابها ، وتخلص من دركات النار وعذابها .

ح ـ ومن المناسب أن ننبِّه إلي ما يقع فيه كثيرٌ من المفسرين من روايتهم لحديث أبي بن كعب .

وفيه :" من قرأ سورة الفاتحة : أعطي من الأجر كذا وكذا .. "

وذكر سور القرآن .. سورة سورة ،وثواب تاليها .

وذلك من أول سورة في القرآن الكريم إلي آخر سورة.

وقد ذكرهذا الحديث :

الثعالبي في "الكشف والبيان"

والواحدي في "الوسيط"

والزمخشري في "الكشاف"

والبيضاوي في "أنوار التنزيل وأسرارالتأويل"

وأبوالسعود في "إرشادالعقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم "

وغيرهم..

وهذا الحديث :

من الأحاديث الموضوعة في فضائل القرآن.
انظر:
ابن الجوزي في كتابه " الموضوعات".
[أبواب تتعلق بالقرآن،باب في فضائل السور ٢٣٩/١]
حيث قال:
" هذا الحديث يدل علي أنه مصنوع ؛ فإنه قد استنفد السور جميعها ، وذكر لكل واحدة ما يناسبها في الثواب .
وذلك : بكلام ركيك، لا يناسب كلام رسول الله صلي الله عليه وسلم ."

ثم قال : وقد روي أيضا في فضائل السور.. ميسرة بن عبد ربه .
قال عبد الرحمن بن مهدي :
قلت : من أين جئت بهذه الأحاديث "من قرأ كذا ؛ فله كذا .. " ؟
قال : وضعته أرغب الناس فيه .

ثم روي كذلك :
عن ابن المبارك .. أنه قال : أظن الزنادقة وضعته .
وروي أيضا هذه الرواية :
" حدثني شيخ بفضائل سور القرآن ، الذي يروي عن أبي ابن كعب ".
فقلت للشيخ : من حدثك .. ؟
فقال : حدثني رجل بالمدائن ، وهو حي .
فصرت إليه .
فقلت : من حدثك ..؟
فقال : حدثني رجل بواسط ، وهو حي .
فصرت إليه .
فقال: حدثني شيخ بالبصرة ، وهو حي .
فصرت إليه .
فقال : حدثني شيخ بعبدان .
فصرت إليه .
فأخذ بيدي ، فأدخلني بيتا ، فإذا فيه قوم من المتصوفة ، ومعهم شيخ ، فقال : هذا الشيخ حدثني به .
فقلت : يا شيخ ..!! من حدثك .. ؟
فقال : لم يحدثني أحد ، ولكن رأيت الناس قد رغبوا عن القرآن ، فوضعنا لهم هذا الحديث ؛ ليصرفوا وجوههم إلي القرآن .

وهذا : منتهي القبح والافتراء علي رسول الله صلي الله عليه وسلم ؛ حيث قال "من حدث عني حديثا يري فيه أنه كذب : فهو أحد الكاذبين"

وانظر أيضا :
١ ــ الكناني .. تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة .
[كتاب : فضائل القرآن ، الفصل الأول ٢٥٨/١ الطبعة الثانية ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت]
٢ ــ الشوكاني ..الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة .
[باب : فضائل القرآن ص٣١٧]
٣ ــ ملا علي القاري .. الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة [فصل ٢٨]

سابعًا : صلة السورة بما قبلها

من المعلوم الوضح :
أنه ليس هناك قبل هذه السورة الكريمة في المصحف الشريف سورة تسبقها ؛ حتي يكون ثمت مناسبة بينها وبين ما قبلها ،
كما سنري في السور الآتية، بإذن الله تعالي .

ثامنًا : هدف السورة

تهدف فاتحة الكتاب بجملتها إلى : بث روح العبادة في المتدبر لها .
وروح العبادة هي: إشراب القلوب خشية الله تعالى ، وهيبته ، والرجاء لفضله.
وليست فقط الأعمال المعروفة ، من : فعل، وكف، وحركات باللسان والأعضاء ؛ فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها ، والصيام وأيامه.
وإنما هذه الأعمال : مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة ، ومخ العبادة :الفكر والعبرة.
وهذه الروح : كانت في المسلمين قبل أن يكلفوا هذه الأعمال البد نية ، وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلا ما .(١٠)

تاسعًا : تقسيم آيات السورة موضوعيًا

تتكون سورة "الفاتحة" من: ثلاث فقرات.(١٧)
الفقرة الأولى : عبارة عن (٣) آيات.
من الآية الأولى : حتى نهاية الآية (٣)
وفيها :
بيان أساس العقيدة الإسلامية : وهو الإيمان بالله تعالى رب العالمين ، والإيمان باليوم الآخر .
والفقرة الثانية : عبارة عن (آية) واحدة.
وهي الآية : (٤) من السورة.
وفيها :
بيان أساس العبادة **: وهو الإخلاص لله تعالى فيها ، وبها ،حيث إن تقديم الضمير إياك على الفعل في العبادة والاستعانة ..يفيد ذلك ، ويؤكد عليه .**

والفقرة الثالثة **: عبارة عن (٣) آيات ، على رأي من اعتبر "البسلمة" ليست من السورة ، وآيتان على رأي من اعتبر "البسملة" آية [النساء: ٦٩] من السورة .**
وفيها :
بيان أساس الطريق إلى الله تعالى : وهو القدوة الحسنة ، المتمثلة في الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.
وبيان أساس الإنحراف عن الصواب : وهو القدوة السيئة ، المتمثلة في المغضوب عليهم والضالين ، ومن تابعهم ، أو رضي ما هم عليه .

عاشرًا : أبرز موضوعات السورة

اشتملت فاتحة الكتاب على مجمل ما جاء به القرآن تفصيلا .
فالقرآن الكريم جاء:
أ- لهداية الناس إلى العقيدة الصحيحة وتثبيتها في عقولهم وقلوبهم .
ب- إرشاد الناس إلى الشريعة المنظمة لحياتهم ، والمؤدية بهم إلى فلاح الدنيا ، وسعادة الآخرة .
وركز للوصول إلى ذلك على:(١٠)
١- التوحيد؛ لأن الناس كانوا وثنيين ، وإن كان بعضهم يدعي التوحيد، ولا تزال الوثنية فاشية إلى اليوم في كثير من خلق الله ، وبصور لها عديدة .
٢- العبادة. التي تحيي التوحيد، وترسخ العقيدة في السلوك والقلوب، وتثبتها في النفوس .
٣- الوعد والوعيد.
الوعد بالبشارة لمن وحد ، وثبت اعتقاده ، وحسنت عبادته ، واستقام سلوكه.
والوعد:
يشمل ما للأمة وما للأفراد ، ويعم نعم الدنيا والآخرة ، وسعادتها.
وقد وعد الله المؤمنين : بالإستخلاف في الأرض ، والعزة والسلطان ، والسيادة وفي الآخرة بالجنة .
والوعيد بالسوء لمن لم يوحد ، واهتز إعتقاده ، أو خالف .
وقد أوعد الله المخالفين : بالخزي والشقاء في الدنيا ، وفي الآخرة بنار الجحيم .
ويشمل كذلك ما للأمة وما للأفراد ، ويعم نقم الدنيا والآخرة ، وشقاءهما.
٤- بيان سبيل السعادة – وهي الشريعة ، وكيفية السير فيه، وهو الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة.
٥- عرض قصص من اهتدى إلى : العقيدة الصحيحة ، والتوحيد الخالص ، فوقف عند حدود الله تعالى، وأخذ بأحكام دينه ، وكذلك: أخبار الذين ما أشربت قلوبهم عقيدة التوحيد ، ولم يقفوا عند حدود الله تعالى ، ولم يلتزموا بدينه، بل نبذوا كل ذلك ظهريا.

هذه هي الأمور : التي احتوى عليها القرآن ، وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية .
والفاتحة: مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ولا ريب.(١٠)
فأما التوحيد : ففي قوله تعالى:{ الحمد لله رب العالمين}.
وأما العبادة: ففي قوله تعالى:{ إياك نعبد وإياك نستعين}.
وأما الوعد والوعيد: ففي قوله تعالى:{ مالك يوم الدين}.
وأما بيان سبيل السعادة : ففي قوله تعالى: {إهدنا الصراط المستقيم}.
وأما القصص والأخبار : ففي قوله تعالى:{ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين}.
ويتبين من ذلك :
أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلا.
ومن هنا : كان إنزالها أولا، موافقا لسنة الله تعالى في الإبداع .
وعلى هذا :تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى "أم الكتاب" كما نقول: إن النواة أم النخلة.(١١)

١ - أن في هذه السورة من(١٨):

كليات العقيدة الإسلامية ، وكليات التصور الإسلامي ، وكليات المشاعر والتوجهات؛ ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها السورة.

فالكلية الأولى في التصور الإسلامي : نجدها في البدء باسم الله ، وما ينطوي عليه من توحيد الله والأدب معه.

كما يمثل قاعدة التصور الإسلامي : قوله تعالى رب العالمين

بل إن الربوبية المطلقة الشاملة في قوله تعالى رب العالمين : هي إحدى كليات العقيدة الإسلامية .

إذ إن إطلاق الربوبية في هذه السورة ، وشمولها للعالمين جميعا، هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة، لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد، تقر له بالسيادة المطلقة، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة.

ومن ثم : كانت عناية الإسلام الأولى : موجهة إلى تحرير أمر العقيدة، وتحديد التصور الذي يستقر عليه الضمير في أمر الله وصفاته ، وعلاقته بالخلائق وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين.

وكذلك : فالاعتقاد بيوم الدين ، الذي هو يوم الجزاء في الآخرة ، يمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير في حياة البشرية كلها، وهي كلية الاعتقاد باليوم الآخر .

والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض، فلا تستبد بهم ضرورات الأرض؛ وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات، ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور، وعندئذ يملكون العمل لوجه الله، وانتظار الجزاء حيث يقدره الله، في الأرض أو في الدار الآخرة سواء، في طمأنينة لله، وفي ثقة بالخير ' وفي الإصرار على الحق، في سعة وسماحة ويقين.

ومن ثم: فإن هذه الكلية تُعدُّ مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والرغائب، والطلاقة الإنسانية اللائقة ببني الإنسان، بين الإنسانية في حقيقتها العليا التي أرادها الله الرب لعباده، والصور المشوهة المنحرفة التي لم يقدر لها الكمال.

والكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة، هي العبادة له وحده، والاستعانة به وحده إياك نعبد وإياك نستعين.

وهنا كذلك مفرق طريق: بين التحرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد.

وهذه الكلية: تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل... التحرر من عبودية الأوهام، والتحرر من عبودية النظم، والتحرر من عبودية الأوضاع،وإذا كان الله وحده هو الذي يستعان؛ فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع، والأشخاص، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات.

وبعد تقرير تلك الكليات الأساسية في التصور والاعتقاد الإسلامي؛ وتقرير الاتجاه إلى الله وحده بالعبادة والاستعانة، يبدأ في التطبيق العملي لها، بالتوجه إلى الله بالدعاء على صورة كلية تناسب جو السورة وطبيعتها اهدنا الصراط المستقيم* صرا ط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

يضاف إلى ذلك (١٩) :

٢ – أن تربية الله للعالمين المذكورة في قوله تعالى رب العالمين ليست لحاجة به إليهم، كجلب منفعة أو دفع مضرة، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه.

وذلك: مأخوذة من إعادة قوله تعالى {الرحمن الرحيم }

٣– أن الله تعالى يذكر عباده كي لا يفهم البعض من معنى الرب : الجبروت والقهر فقط – برحمته وإحسانه، ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال.

وذلك : بذكرالرحمن وهو المفيض للنعم ، بسعة وتجدد، لا منتهى لها، وبذكرالرحيم وهو الثابت له وصف الرحمة ، لا يزايله أبدا.

٤- أن الله تعالى – كأنه إذ كرر الرحمن الرحيم – أراد أن يتحبَّب إلى عباده ، فعرَّفهم أن ربوبيته لهم – في قوله تعالى رب العالمين – ربوبية رحمة وإحسان ، ليتعلقوا به، ويقبلوا على اكتساب مرضاته، منشرحة صدورهم ، مطمئنة قلوبهم.
وذلك: من تكرار قوله تعالى{ الرحمن الرحيم} .
٥- أن الجزاء على التفريط في العمل الواجب إنما يظهر في الدنيا ظهورا تاما بالنسبة لمجموع الأمة ، وليس لكل فرد من أفرادها.
إذ أنه ما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم، ولم تراع سنته في خليقته؛ إلا أحل بها العدل الإلهي ما تستحق من الجزاء؛ كالفقر، والذل، وفقد العزة والسلطة .
أما الأفراد : فإننا نرى كثيرا من المسرفين الظالمين يقضون أعمالهم منغمسين في الشهوات واللذات والظلمات، دون أن يحدث لهم – غالبا – أو ينزل بهم مكروه أو جزاء ، كما أننا نرى كثيرا من المحسنين – في أنفسهم وللناس – من يبتلى بهضم حقوقه ، ولا ينال – غالبا – من الجزاء على عمله شيئا مما يستحقه.
ولذلك : من قوله تعالى{ مالك يوم الدين} وعدم قوله "مالك الدين" .. أي: كأنه تعالى ، يعرفنا أن للدين يومًا مختارًا عن سائر الأيام ، وهو اليوم الذي يلقى فيه كل عامل عمله ، ويوفى جزاءه كله، لا ينتقص شيء منه ، كما قال تعالى{ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل ذرة شرا يره} [الزلزلة ٧،٨]
٦- أن قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم الذي يعتبر أول دعاء علمنا الله تعالى إياه.
معناه: دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ.
وما ذلك : إلا لأن حاجتنا إلى هذه الدلالة المصحوبة بمعونتك الغيبية ، أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواها.
وتوضيح ذلك: أن الهداية على أربع:.
الأول: هداية الفطرة والوجدان، كمعرفة الطفل ثدي أمه فور ولادته.
الثاني : هداية الحواس والمشاعر .ويشترك فيها الإنسان والحيوان ، كما في الأولى.
nbs&؛الثالث: هداية العقل. وهي أعلى من هداية الفطرة والحواس، بل هي التي تصحح غلط الحواس والمشاعر، والعقل هو الذي يبين أسباب هذا الغلط ، إذ أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرا ، ويأتي العقل ليحكم بفساد هذا الإدراك ويصححه .
الرابع: هداية الدين. فقد يهمل الإنسان استخدام فطرته وحواسه وعقله فيما فيه سعادته...!!
وهنا : منحه الله تعالى ، هداية الدين ، التي هو في أشد الحاجة إليها.
يقول تعالى وهديناه النجدين أي طريقي : السعادة والشقاوة ، والخير والشر.
ولكن..!!
تبقى هداية فوق كل ذلك، هداية تتجاوز حدود الدلالة ، وتصل إلى مرتبة الإعانة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة .
ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين وفي استعمال الحواس والعقل – كما هو واضح – كان محتاجًا إلى المعونة الخاصة :أمرنا الله تعالى – وهو أحكم الحاكمين – بطلبها منه، في قوله اهدنا الصراط المستقيم
وذلك : ليحفظنا ربنا تعالى – بهذه المعونة – من الضلال والخطأ.

ثاني عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

١ ـــ انظر :

٢ –لقرطبي.. – الجامع لأحكام القرآن (تفسير الفاتحة)

٣ – ابن كثير .. حتفسير القرآن العظيم(تفسير الفاتحة)

٤ –الفيزوزابادي.. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١٢٨\١ وما بعدها

٥ – السيوطي الإتقان في علوم القرآن (النوع ١٧)

٦ – الآلوسي .. –روح المعاني (تفسير الفاتحة)

٧ – سنن الدارمي .. كتاب: فضائل القرآن ، باب: فضل "فاتحة الكتاب".

٨ – البخاري .. كتاب الطب ، باب الرقى بفاتحة الكتاب (واللفظ ليس له)

٩ – مسلم.. كتاب: الصلاة ، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

١٠ – انظر:

مكي ابن أبي طالب.. التبصرة ص ٥٤

السخاوي .. جمال القراء ١٩٠\١

الفيروزابادي .. سبق

الألوسي .. سبق

محمد غوث نثر المرجان في نظم القرآن ٩٣\١

١١ – الفيروزابادي ..بصائر ذوي التمييز ١\ ١٢٨ وما بعدها

١٢ – النيسابوري .. غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير الفاتحة)

١٣ – السيوطي ..الإتقان في علوم القرآن (النوع ١٧)

١٤ – السيوطي (سبق) والإمام محمد عبده.. فاتحة الكتاب ط الشعب ص ١٧ ويلاحظ : أن جمهور العلماء على أن أول ما نزل من القرآن على الإطلاق اقرأ باسم ربك الذي خلق وهو الصواب .

١٥ – محمد عبده .. فاتحة الكتاب ص ١٧ وما بعدها.

١٦ – القرطبي ..الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة الفاتحة)

١٧ – البخاري..ك: فضائل القرآن ، باب: فضل فاتحة الكتاب .

١٨ – أي : الفاتحة.

١٩ – أي صوتًا كصوت الباب إذا فتح.

٢٠ – رواه مسلم ،كتاب: صلاة المسافرين،باب : فضل الفاتحة..

٢١ – رواه البخاري..كتاب: التفسير ،بابغير المغضوب عليهم

٢٢ – سعيد حوى..الأساس في التفسير (تفسير سورة الفاتحة) ٣٥\١ وما بعدها،بتصرف

٢٣ – انظر :سيد قطب ..في ظلال القرآن (سورة الفاتحة)(بتصرف)

٢٤ – محمد عبده ..فاتحة الكتاب ص ٨، وما بعدها (بتصرف يسير).

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي

رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة البقرة

لسورة البقرة أكثر من اسم فهي تسمي:

١ـــ سورة البقرة

وذلك:لورود قصة بقرة بني إسرائيل وما احتوت عليه من الدلالات فيها وحدها دون غيرها من باقي السور في الآيات من قوله تعالي (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً)[البقرة: من الآية٦٧]

إلي قوله تعالي (كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(البقرة: من الآية٧٣) هذا وقد ورد ما يدل علي كراهة أن يقول القائل : سورة البقرة ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله .

ولكن يقال : السوره التي تذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها آل عمران ، وهكذا في جميع القرآن

ويحتج أصحاب هذا القول بأحاديث لا تنهض لهم

وروي عن جماعه من الصحابة خلاف ذلك :بما يفيد جواز أن يقول القائل : سورة البقرة ..... الخ (٢)

وأجاز الجمهور من العلماء أن يقال سورة البقرة من غير كراهة .

ويحاول صاحب روح المعاني الجمع بين القولين بقوله: ((ويمكن أن نوفق، بأنه كان مكروهاً في بدء الإسلام، للاستهزاء الكفار، ثم بعد سطوع نوره نسخ النهي عنه، فشاع من غير نكير.(٣)

٢ـــ فسطاط القرآن(٤)

وذلك: لعظمها، وبهائها، وكثرة أحكامها، ومواعظها حتي قال بعض العلماء: إن فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف خبر، وفيها خمسة عشر مثلاً(٣)، ويذكر صاحب تفسيرالمنار من الأحوال والقواعد الشرعية العامة فيها ثلاثة وثلاثين قاعدة.(٥)

٣ـــ سنام القرآن (٦)

لما رواه الدرامي عن عبد الله قال: ((إن لكل شيء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة)) (٧).....وسنام كل شيء أعلاه .

٤ـــ الزهراء (٦)

لما روي عن رسول الله صلي الله عليه وسلم((أقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابة أقرأوا،الزهراوين: البقرة وآل عمران...)) (٨)

وقد سميتا:الزهراوين لنورهما، وهدايتهما، وعظيم أجرهما.

٥ـــ سورة الكرسي(٩)

لإشتمالها علي آية الكرسي،التي هي أعظم آيات القرآن الكريم.(٩)

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

أـــ عدد آياتها: (٢٨٦) مائتان وست وثمانون.

ب ـــ عدد كلماتها: (٦١٢١) ست آلاف و مائة وإحدى عشر كلمة .

جـــ حروفها : (٢٥٥٠٠) خمسة عشر ألفا وخمسمائة حرف .

وينبغي أن نلاحظ جيداً: اننا نذكر عدد آيات السورة حسب ما أتفقت عليه المصاحف العثمانية، وقال بذلك العلماء، أما إذا كان ثمت خلاف في ذلك: فنذكر فقط العدد كما هو في الكوفي،أو عند علماء الكوفة ، وذلك : لأنه الأصح، حيث إن إسناده متصل بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما صرح بذلك مجد الدين الفيروز بادي في كتابة النفيس "بصائر ذوي التمييزفي لطائف الكتاب العزيز " (١١)

ثالثاً : ترتيب السورة في المصحف و في النزول

أـــ في النزول.

بعد سورة "الناس".....وقبل سورة"الأنفال"

ب ـــ في المصحف.

بعد سورة "الفاتحة".....وقبل سورة "آل عمران"

رابعاً : سبب نزول السورة

عن مجاهد:أربع آيات من أول هذه السورة... نزلت في المؤمنين.
وآيتان بعدها نزلت في الكافرين
وثلاث عشرة بعدهانزلت في المنافقين (١)
وهكذا...آيات ، آيات
ولكن ليس للسورة جميعها سبب نزول.

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

هذه السورة: أول سورة نزلت بالمدينة
ولذلك : فهي مدنية : بلا خلاف.
وقالوا: (١٣)
هي أطول سورة في القرآن.
وفيها أطول آية في القرآن، وهي آية الدين.
وفيها أعظم آية في القرآن، وهي آية الكرسي.
وفيها أخر آية نزلت في القرآن، وهي{ وأتقوا يوما ترجعون فيه إلي الله...} [البقرة ٢٨١].

سادساً : فضل السورة

روي أئمة الحديث في فضائل هذه السورة أحاديث كثيرة وأثاراعن الصحابة وفيرة .

منها:ما هو خاص بآية الكرسي.

ومنها:ما هو خاص بخواتم هذه السورة.

ومنها:ما هو في فضلها وفضل سورة آل عمران.

ومنها:ما هو خاص بها.

وسوف نتعرض هنا فقط إلي ما ورد خاصاً بها وحدها خشية التطويل.

فمن ذلك :

أـــ ما أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة (أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان)(١٤)

ب ـــ وأخرج الترمذي أيضاً عن أبي هريرة قال: (بعث رسول الله صلي الله عليه وسلم بعثاً وهم ذو عدد ، فأستقرأهم،فأستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتي علي رجل منهم، من أحدثهم سنا، فقال ما معك يا فلان ؟ قال معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: أمعك سورة البقرة ؟ فقال: نعم، قال:
فاذهب فأنت أميرهم)

ج ـــ وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدرامي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه عن بريدة قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم (تعلموا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة) (١٥).... أي السحرة.

وأخرج الدارمي عن عبد الرحمن بن الأسود قال : من قرأ سورة البقرة توج بها تاجا في الجنة . (١٥)
ولفضلها: تعلمها عمر رضي الله عنه بفقهها وما تحتوي عليه في اثنتي عشر سنة ، وابنه عبد الله في ثماني سنين.

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

قال الأمام الآلوسي في روح المعاني:ووجه مناسبتها لسورة الفاتحة:
أـــ أن الفاتحة مشتملة علي بيان الربوبية أولا ًو العبودية ثانياً، وطلب الهداية في المقاصد الدينية والطالب اليقينية ثالثاً.
وكذا سورة البقرة: مشتملة على معرفة الرب أولاً كما في(يؤمنون بالغيب) وأمثاله، وعلي العبادات وما يتعلق بها ثانياً .
وعلي طلب ما يحتاج إليه في العاجل والآجل آخراً.

ب- وأيضاً في آخر الفاتحه طلب الهدايه وفي أول البقره : إيماء إلي ذلك بقوله (هدي للمتقين) [البقرة : ٢]

ولما افتتح سبحانه الفاتحه بالأمر الظاهر وكان وراء كل ظاهر باطن افتتح هذه السورة بما بطن سره وخفي إلا علي من شاء الله تعالي وقال (بسم الله الرحمن الرحيم *آلم) (٣)

ج_ وروي صاحب تفسيرالمنار:
أنه لا حاجه إلي بيان التناسب بينها وبين الفاتحه .
وإن كان التناسب ظاهرا :فإنها لم توضع لأجله وإنما وضعت في أول القرآن بعد فاتحته (التي كانت فاتحته بما لها من الخصائص المعروفه) لأنها أطول سوره وتليها بقية السبع الطوال.٠(٥)

ثامناً : هدف السورة

وتهدف سورة البقرة إلى :

إثبات سمو هذا الدين علي ما سبقه، وعلو هديه، وأصول تطهيره للنفوس، خلال دعوته العامة للإسلام .
ويحقق الوصول لهذا الهدف : الآيات من صدر السورة إلي الآية رقم ١٤٢أي نصف السورة تقريباً.
وطابع هذا القسم (١٨) .

أنه خطاب عام لجميع الناس.
فقد بدأت السورة بالكلام علي القرآن ، وأثره ، ثم بيان موقف الناس منه، فمنهم المؤمن المسالم ، والكافر المجاهر، والمنافق المخادع .
ثم اتجهت لخطاب أمة الدعوة ـــ الناس جميعاًــــ حيث دعاهم الله تعالي إلى الإيمان الصحيح، مبيناً لهم :إعجاز القرآن ، وصدق الرسول .
ثم...ثم التفت إلى بني إسرائيل ـ الطبقة الواعية في المجتمع المدني ـ فدعاهم إلى ما فيه خيرهم ، وذكرهم بنعم الله عليهم ، وحذرهم من نقمته ، وبين لهم: قبائحهم ، وسيئات آبائهم ، وأطال في ذلك ٠
وتعرض لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وإلى علاقته بالعرب ، وإلى موقفهم منه ٠
وكل هذا لا يعرفه الرسول صلى الله عليه وسلم إلا عن طريق الوحي ٠

٢ـ تبيان شرائع هذا الدين لأتباعه ، وإصلاح مجتمعهم ، خلال خطابه لأمة الإجابة ـ المسلمين ـ بموضوع الدعوة (١٧)
ويحقق هذا الهدف : القسم الثاني من السورة.

وطابع هذا القسم :
أنه خطاب للمسلمين ٠
وقد بدئ بالكلام على أول حادثة دينية تمس المسلمين وأهل الكتاب : وهو تحويل القبلة
ثم عالجت السورة المجتمع الإسلامي ، فذكرت الكثير من التشريعات والقوانين ، وما يجب أن يكون عليه المجتمع الأمثل المسلم ٠

وكان الأساس الأول : الدعوة إلى التوحيد الخالص لله ٠

وتعرضت لأحكام : القصاص ، والوصية ، والقتال ، والإنفاق في سبيل الله

كما تعرضت لبيان بعض العبادات : كالصيام والحج ، وظهرت أحكام الخمر ، ونكاح المشركات ، والعدة ، والإيلاء ، والطلاق ، والرضاع، والربا ، وأحكام التداين ، والمعاملات ، وخاصة : الرهن ٠
وفي خلال ذلك : قصص ، وحكم

ثم ختمت السورة بالدعاء الإسلامي الكامل ٠ (١٨)

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

تتكون سورة " البقرة " من : مقدمة ، وثلاثة أقسام ، وخاتمة (١٩)

ويلاحظ : أن كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة تحته مجموعات وفقرات كثيرة ، ولو تحدثنا عنها تفصيلا لطال بنا الكلام عن حدود المجال
ولذلك : سيكون حديثنا عن هذه الأقسام وما فيها إجمالا فقط ٠٠ اعتمادا على فطنة القارئ ، وتوفيق الله لنا وله في فهم ذلك ٠

فالمقدمة عبارة (٢٠) آية ٠
من الآية الأولي ... حتى نهاية الآية (٢٠)
ذكر أقسام الناس ، حسب التقسيم الرباني الإسلامي ، وهذه الأقسام هي :
المؤمنون المتقون ٠
الكافرون المعاندون ٠
المنافقون ٠
وتوضيح ملامح وصفات كل قسم من هؤلاء ٠

والقسم الأول : عبارة عن (١٤٧) آية
من الآية (٢١) حتى نهاية الآية (١٦٧) ، وفيه :
دعوة عامة إلى الناس جميعا كي يسلكوا الطريق الموصل إلى تقوى الله تعالى ، ويتركوا كل ما ينافي ذلك ٠
وذلك من خلال : مناقشة الكفر وأهله ، وتأكيد وجوب طاعة الأمر واجتناب النهي ٠
وكذلك من خلال : عرض الآثار الخطيرة لمخالفة الأمر، والوقوع في النهي ، في قصة آدم عليه السلام وإبليس ٠
وثالثا من خلال : عرض نماذج الانحراف في قصة بني إسرائيل ٠
ورابعا من خلال : عرض نماذج الاستقامة في قصة إبراهيم عليه السلام .

والقسم الثاني : عبارة عن (٤٠) آية ٠
من الآية (١٦٨) حتى نهاية الآية (٢٠٧) :
وفيه :

تأكيد قضية التقوى ، ورسم طرق التحقق بها ، على مستوى الفرد ، وعلى مستوى الأمة ٠
وكذلك : توضيح مفهوم العبادة ، وقضية الصراط المستقيم ، وقضية الانحراف عنه ، واتجاهات المنحرفين ٠
وثالثا : تعميق مفهوم شكر الله تعالى ، وبيان طرائق هذا الشكر ٠
وخلال ذلك : يتم الكلام عن أركان الإسلام ٠٠ الإيمان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ٠
وبذلك : تصبح أرضية النفس والقلب والعقل جاهزة للسير في الإسلام كله ، ومهيأة لسلوك الطريق الموصل إلى التقوى ٠

والقسم الثالث : عبارة عن (٧٧) آية
من الآية (٢٠٨) حتى نهاية الآية (٢٨٤)
وفيه :
الدعوة إلى الدخول في الإسلام كله ، وتبيان ما يلزم لإقامة صرح هذا الدين ٠

وذلك من خلال : توضيح شرائعه الكثيرة ، وتوجيهاته الرئيسة في جميع القضايا ومجالات الحياة ٠
إذ يعرض الملامح الرئيسة في قضايا الحرب والسلام ، والعلاقات الاجتماعية في محيط الأسرة ، كما يعرض الملامح الرئيسة لنظام الاقتصاد في الإسلام ، وهو النظام غير الربوي ، القائم على التوجيهات الربانية ، التي تضبطه ، وتجعل المالكية فيه لله تعالى ، فلا أثرة ، ولا أنانية ، ولا بغضاء ... الخ ٠

وأخيرا .. الخاتمة :
وهي عبارة عن (آيتين) فقط وهما : ٢٨٥ ، ٢٨٦
وفيها : ربط كل شئ بقضايا الإيمان ، والتوجه إلى الله ، معلمة في ذلك ، مربية عليه ، مفصلة فيه ٠
حيث إن كل ما تعرضت له السورة ، وعرضته يعود إلى الإيمان والسمع والطاعة والتوبة من التقصير
وهذا هو الذي عرضته الآية الأولى في الخاتمة (٢٨٥) ٠
ومرجع ما مر كله : يعود إلى التكليف المستطاع للإنسان ، وأن هذا التكليف بسببه يكون الجزاء والعقاب ،
وهذا هو الذي ذكرته الآية الثانية من الخاتمة (٢٨٦) ٠
وهذا والذي قبله : لا يتأتى إلا بعبودية كاملة ، وتوفيق من الله ، وهذا الذي علمتنا إياه هذه الدعوات ٠
(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) ٠
لقد جمعت هذه الدعوات الخاتمة : كل التطلعات التي يتطلع إليها المؤمنون .
وكان ذلك ختام السورة ٠

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

عاشرا : أبرز موضوعات السورة :
وسورة البقرة تدور موضوعاتها حول محورين رئيسين :

أولهما : الدعوة العامة إلى الإسلام ، وبيان أصوله للناس أجمعين ٠

وثانيهما : توضيح منهج الإسلام ونظامه ، وبيان شرائعه وأحكامه لأتباعه ٠

ويندرج تحت كل محور منهما موضوعات شتى :

أما الأول فهو : الدعوة العامة للإسلام ، وهي التي تستغرق من الموضوعات الكثيرة مثل :
١ـ بيان دعوة القرآن ، وكونه حقا لا مجال فيه لشك ولا ارتياب ، وأن الناس تجاه دعوته هذه ثلاثة أقسام :
المؤمنون ـ الكافرون ـ المنافقون

٢ـ دعوة الناس جميعا إلى عبادة ربهم وعدم اتخاذ الأنداد له ٠

٣ـ دعوة الوحي والرسالة ٠٠ وما يستتبع ذلك من :
التحدي ، وعجز الناس أجمعين عن الإتيان بسورة من مثل هذا الكتاب٠

٤ـ دعوة بني إسرائيل إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه ٠٠٠ وما يستتبع ذلك ويوضحه ٠
وأما الثاني : وهو بيان منهج الإسلام ونظامه ، وشرائعه ، وأحكامه ، وهو القسم الذي يوجه فيه مباشرة للمسلمين ـ أمة الإجابة ـ والذي يستغرق النصف الأخير من السورة ، فيتناول من الموضوعات الكثير مثل:

١ــ ذكر ما هو مشترك بين قوم موسى وقوم محمد صلى الله عليه وسلم عليهما ، من نسب إبراهيم والاتفاق على فضله وهدايته ٠

٢ــ ذكر أول مسألة يختلف حولها القومان ، وهي مسألة القبلة ٠

٣ــ ذكر وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم كما وردت في دعوة إبراهيم عليه السلام (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) (البقرة ١٥١) ٠

٤ــ ذكر الأساس الأعظم للدين ، توحيد الألوهية ، وذلك : بتخصيص الخالق وحده بالعبودية (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ٠٠٠ (البقرة ١٦٣)

٥ــ ذكر كليات الدين المجملة لإبطال ما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من تحكيم الأهواء ، في التحليل والتحريم ، الذي هو حق الله تعالي وحده ٠

٦ــ ذكر وجوب الدعوة ، وبيان الحق على كل من آمن بالله ، عن طريق وعيد الذين يكتمون ما أنزل الله ٠

٧ــ ذكر أصول البر ومجامعه ، في الآية المعجزة الجامعة لكليات العقائد والآداب والأعمال (ليس البرأن تولوا وجوهكم ٠٠٠) الآية (البقرة١٦٣)

٨ــ ذكر الأحكام الشرعية الفرعية مثل : أحكام القصاص في القتلى ، وأحكام القتال ، وأمور الاجتماع وقواعده ٠

٩ــ ذكر العقائد العامة : من : الرسالة ، والتوحيد ، وحججه ، والبعث ٠

١٠ــ ذكر الأحكام الفرعية العملية إلى ما قبل ختم السورة كلها بالدعاء المعروف ٠

وعلى كل :
فخلاصة ما في هذه السورة من أمهات الشريعة ما يلي (٢١): ــ
(١) دعوة الناس جميعا إلى عبادة ربهم ٠
(٢) عدم اتخاذ أنداد له ٠
(٣) ذكر الوحي والرسالة ، والاستدلال على ذلك بهذا الكتاب المنزل على عبده ، وتحدي الناس كافة بالإتيان بمثله ٠
(٤) ذكر أس الدين وهو توحيد الله ٠
(٥) إباحة الأكل من جميع الطيبات ٠
(٦) ذكر الأحكام العملية من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأحكام الصيام ، والحج والعمرة ، وأحكام القتال والقصاص ٠
(٧) الأمر بإنفاق المال في سبيل الله ٠
(٨) تحريم الخمر والميسر ٠
(٩) معاملة اليتامى ومخالطتهم في المعيشة ٠
(١٠) أحكام الزوجية من طلاق ورضاعة وعدة ٠
(١١) تحريم الربا والأمر بأخذ ما بقى منه ٠
(١٢) أحكام الدَيْن من كتابة وإشهاد وشهادة وحكم النساء والرجال في ذلك ٠

(١٣) وجوب أداء الأمانة ٠
(١٤) تحريم كتمان الشهادة٠
(١٥) خاتمة ذلك كله : الدعاء الذي طلب منا أن ندعوه به ٠
وعلى الجملة : فقد فصلت فيها أحكام ، وضربت الأمثال ، وأقيمت الحجج ، ولم تشتمل سورة على مثل ما اشتملت عليه ، ومن ثم سميت فسطاط القرآن ٠

حادي عشر : بعض الدروس المستفادة

إن سورة البقرة : سورة زاخرة بالفوائد الجليلة والمنافع العظيمة لأمة الرسالة الخاتمة ، وكذلك للناس أجمعين ٠
وقد هدانا الله تعالى خلال البحث إلى مجموعة من الأصول والقواعد الشرعية العامة ، التي استنبطها صاحب تفسير" المنار " من هذه السورة (٢٢)٠
ونحن نقدمها هنا ــ نقلا منه مع اختصار يسير ــ تحت عنوان " الدروس المستفادة " على النحو التالي ، راجين من الله تعالى بها النفع العام لنا ولجميع المسلمين ٠

(الفائدة الأولى) إن إتباع هدى الله المنزل على رسله وهو الدين موجب للسعادة بأن أصحابه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهذا وعد يشمل الدنيا والآخرة لإطلاقه ٠

(الفائدة الثانية) قوله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) [الآية ٤٤] وهي صريحة في أن هذا مخالف للمنقول الشرعي وهو الكتاب ، وللمعقول الفطري ، إذ لا يخف على عاقل قبح عمل من يأمر غيره بالخير وهو يتركه ، أو ينهاه عن فعل ما يضره من الشر وهو يفعله ، وأنه يقيم بذلك الحجة على نفسه ، ولا يكون أهلا لأن يمتثل أمره ونهيه ٠

(الفائدة الثالثة) : قوله تعالى في مقام الإنكار على بني إسرائيل : (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) (البقرة ٦١) صريح في وجوب ترجيح الأعلى على الأدنى وإيثار الخير على الشر والإرشاد إلى طلب ما هو خير وأفضل مما يقابله ، وفي طلب المعالي والكمال في أمور الدنيا والآخرة ٠ وفي معناه قوله تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) (البقرة ١٣٠) ٠

(الفائدة الرابعة) قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا)[الآية : ٦٢) في أن أصول دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله هذه الثلاثة : الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من الجزاء ، والعمل الصالح ٠ ومنه ذكر في الآية ٨٣ من ميثاق بني إسرائيل فثمرة الإيمان منوطة بالثلاثة

(الفائدة الخامسة) أن الجزاء على الإيمان والعمل معا ، لأن الدين إيمان وعمل ٠ ومن الغرور أن يظن المنتمي إلى دين نبي من الأنبياء ، أنه ينجو من الخلود في النار بمجرد الانتماء ، والشاهد عليه ما حكاه الله لنا عن بني إسرائيل من غرورهم بدينهم وما رد به عليهم حتى لا تتبع سَنَنَهُم فيه ، وهو: (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) الآيات (البقرة ٨٠ ــ ٨٢) وما حكاه عن اليهود والنصارى جميعا من قولهم : (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم) الخ [الآيتين: ١١١ ، ١١٢)
ولكننا قد اتبعنا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع مصداقا لما ورد في الحديث الصحيح ٠ وإنما نمتاز عليهم بأن المتبعين لهم بعض الأمة لا كلها٠ وبحفظ نص كتابنا كله وضبط سنة نبينا في بيانه ، وبأن حجة أهل العلم والهدى منا قائمة إلى يوم القيامة

(الفائدة السادسة) أن شرط الإيمان : الإذعان النفسي لكل ما جاء به الرسول الذي يلزمه العمل عند انتفاء المانع ، ومأخذه قوله تعالى :(وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل) [الآيات: ٨٣ ــ ٨٦) وقوله : (أو كلما

عاهدوا عهدا) [الآية : ١٠٠) فمن ترك بعض العمل بجهالة فهو فاسق إلى أن يتوب ؛ ومن تركه لعدم الإذعان له كان كافرا به ، والكفر بالبعض كالكفر بالكل ، وشاهد عليه قوله تعالى : (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) [البقرة ٨٥]

(الفائدة السابعة) النسخ أو الإنساء للآيات الإلهية التي يؤيد الله بها رسله كما يقتضيه سياق قوله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها) اقرأها وما بعدها (١٠٦ و ١٠٧) أو للآيات التشريعية كما فهم الجمهور ٠ كلاهما من رحمة الله بجعل البدل خيرا من الأصل ، أو مثله على الأقل ، وتكون الخيرية في المثل التنويع وكثرة الآيات ٠

(الفائدة الثامنة) قوله تعالى : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) [البقرة ١٢٠] آية للنبي صلي الله عليه وسلم كاشفة عن حال أهل الملتين في عصره ، ولا تزال مطردة في أمته من بعده ، وقد اغتر زعماء بعض الشعوب الإسلامية فحاولوا إرضاء بعض الدول بما دون اتباع ملتهم من الكفر فلم يرضوا عنهم ، ولو اتبعوا ملتهم لاشترطوا أن يتبعوهم في فهمها وصور العمل بها ، حتى لا يبقى لهم أدنى استقلال في دينهم ولا في أنفسهم

(الفائدة التاسعة) أن الولاية العامة الشرعية حق أهل الإيمان والعدل ، وأن الله تعالى لن يعهد بإمامة الناس وتولى أمورهم للظالمين ، فكل حاكم ظالم فهو ناقض لعهد الله تعالى، راجع قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام بعد ابتلائه مما ظهر به استحقاقه للإمامة : (قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) [الآية ١٢٤]

(الفائدة العاشرة) أن الإيمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل كما أنزله يقتضي الوحدة والاتفاق ، وترك الاهتداء به يورث الاختلاف والشقاق،
وشواهده من السورة قوله تعالى : (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق) [الآية ١٣٧] ، وقوله : (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) [الآية١٧٦] ، وقوله : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين) (الآية ٢١٣)

(الفائدة الحادية عشرة) الاستعانة على النهوض بمهمات الأمور بالصبر والصلاة ، قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) [الآية ٤٥]
وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) [الآية ١٥٣] وهذه قاعدة جليلة راجع تفصيلها في تفسير الآيتين وأمثالهما ٠

(الفائدة الثانية عشرة) بطلان التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين والرؤساء ، لأنه جهل وعصبية جاهلية ،
والشواهد عليه في هذه السورة وغيرها عديدة أظهرها هنا ما حكاه الله تعالى لنا عن تبرؤ المتبوعين من الأتباع يوم القيامة في الآيتين [١٦٦ ، ١٦٧] وقوله عز وجل : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) [البقرة ١٧٠]

(الفائدة الثالثة عشرة) إباحة جميع طيبات المطعم الطبيعية بحسب أفرادها وإيجاب الأكل منها بحسب جنسها ، وامتناع التحريم الديني العام لما لم يحرم الله تعالى منها ، وذلك قوله تعالى : (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا) [الآية ١٦٨] وقوله : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) [الآية ١٧٢] وقوله بعدها : (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) [الآية ١٧٣] فحصر المحرمات في هذه الأربعة ، ومثله في سورة الأنعام والنحل [في الآية ١١٥] السور المكية ، وفي

سورة المائدة المدنية تفصيل في الميتة بجعل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع منها ، إذا ماتت بذلك ولم تدرك تذكيتها [الآية ٣]، وقيدت آية الأنعام الدم بالمسفوح ٠ (الآية ١٤٥]

(الفائدة الرابعة عشرة) إباحة المحرمات للمضطر إليها ، بشرط أن يكون غير باغ لها ولا عاد فيها بتجاوز قدر الضرورة أو الحاجة منها ،
وذلك قوله تعالى في تتمة الآية الأخيرة من شواهد القاعدة التي قبل هذه الفائدة التي قبل هذه : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) [البقرة ١٧٣] وليست الفائدة مقصورة على محرمات المطاعم بل عامة لكل ما يتحقق الاضطرار إليه لأجل الحياة واتقاء الهلاك ، ولم يعارضه مثله أو ما هو أقوى منه ، فالزنا ليس مما يضطر الناس إليه لذلك كما قال العلماء ، ومن اضطر إلى رغيف مضطر مثله فليس له أن يرجح نفسه على صاحب اليد وهو مالك الرغيف ٠

(الفائدة الخامسة عشرة) بناء الدين عباداته وغيرها على أساس اليسر ، ورفع الحرج والعسر ــ كما علل سبحانه رخصة الفطر في رمضان بقوله : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) [البقرة ١٨٥] ومثله تعليل رخصة التيمم برفع الحرج كما في سورة المائدة [المائدة ٦٥] ،وهذه الفائدة أوسع مما قبلها لأن هذه في ترك الواجب ، إلى بدل عاجل أو آجل ، وتلك في استباحة المحرم ولو مؤقتا ، فإن ترك الواجبات أهون من فعل المنهيات ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " فإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ماستطعتم ، وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه " (٢٣)
وسبب هذا أن الترك أهون على غير المضطر من الفعل لأن الأصل عدمه ٠

(الفائدة السادسة عشرة) عدم تكليف ما لا يطاق ، وهذا أصل للفائدتين اللتين سبقتا قبلها والنص فيها قوله تعالى في آخر الآية من السورة : (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) [البقرة ٢٨٦] ووسع الإنسان ما لا حرج فيه عليه ولا عسر ، لأنه ضد الضيق ، ولذلك كانت هذه أوسع مما قبلها وأصلا لهما ، فالله لم يكلفنا في دينه وشرعه ما لا طاقة لنا به ، ولا يدخل في وسعنا امتثاله بغير عسر ولا حرج فإذا عرض العسر عروضا بأسبابه العادية كالاضطرارية لأكل الميتة والدم المسفوح ، وكالمرض والسفر اللذين يشق فيهما الصوم ، واستعمال الماء في الغسل والوضوء ، لو يضر ترك الأول بنية القضاء ، والثاني إلى التيمم المبيح للصلاة ، ولا تترك الصلاة نفسها لعسر أحد شروطها وعدم عسرها في نفسها ، وهي لا تعسر من حيث هي توجه إلى الله تعالى ومناجاة له بكتابه وذكره ودعائه ، فإن شق على المصلي بعض أفعالها كالقيام استبدل به القعود ، فإن شق عليه القعود صلى مضطجعا أو مستلقيا ٠

(الفائدة السابعة عشرة) حظر التعرض للهلكة في قوله تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) [البقرة ١٩٥]
فلا يجوز للمؤمنين ولا سيما جماعتهم أن يتعمدوا إلقاء أنفسهم إلى الهلاك بسعيهم واختيارهم ، ويلزمه وجوب اجتناب أسباب التهلكة من فعلية وتركية ــ وبتعبير المناطقة من سلبية وإيجابية ــ ويدل عليه ذكر هذا النهي عقب الأمر بالإنفاق في سبيل الله لما يحتاج إليه الدفاع من النفقات الكثيرة ، ولا سيما في هذا العصر الذي تعددت فيه آلات القتال ووسائله وعظمت نفقاتها فصارت الأمم العزيزة تنفق الملايين من الجنيهات على وسائل الحرب البرية والبحرية والجوية ، وفروع هذه الفائدة كثيرة ٠

(الفائدة الثامنة عشرة) إتيان البيوت من أبوابها لا من ظهورها ، أي طلب الأشياء بأسبابها دون غيرها ، فلا تجعل العادة عبادة ، ولا العبادة عادة ، ولا تطلب فنون الدنيا من نصوص الدين " أنتم أعلم بأمر دنياكم " (٢٤) كما قال خاتم النبيين ، وأصل هذه الفائدة ما يدل عليه قوله تعالى : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) [البقرة ٨٩]

فللزراعة والتجارة والصناعة وفنون الحرب وآلاته وأسلحته .. أبواب لا يصل إليها ، إلا من يدخل منها ، ولعقائد الدين وعباداته وآدابه وحلاله وحرامه .. أبواب معروفة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولأصول تشريعه السياسي أبواب من النصوص والاجتهاد معروفة أيضا .

(الفائدة التاسعة عشرة) حرية الدين والاعتقاد ومنع الاضطهاد الديني ولو بالقتال حتى يكون الدين كله لله ، وذلك قوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) [البقرة ١٩٣]
الفتنة : اضطهاد الإنسان لأجل دينه بالتعذيب والقتل والنفي كما فعل المشركون بالمسلمين في صدر الإسلام ، ولذلك قال في آيات القتال التي نزلت قبل هذه في سورة الحج : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ٠ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) [الحج ٣٩ ، ٤٠]
ولذلك مهد لهذه الغاية هنا بقوله قبلها : (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) [الآية ١٩١] ثم قفى عليها بقوله : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) [البقرة ٢١٧] ٠

وأما النهي عن الإكراه في الدين حتى الإسلام فقوله تعالى : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) [البقرة ٢٥٦]

وملخصه : أنه كان لدى بني النضير من يهود المدينة أولاد من أبناء الصحابة ربوهم وهودوهم ، فلما أمر النبي صل الله عليه وسلم بإجلائهم لتواتر إيذائهم أراد المسلمون أن يأخذوا أبناءهم منهم ويكرهوهم على الإسلام فنزلت الآية ٠

ومع هذه النصوص لا يزال يوجد حتى في المسلمين من يصدق افتراء أعداء الإسلام بأنه قام بالسيف والإكراه على الدين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبدأ المشركين بالقتال ٠

(الفائدة العشرون) أن القتال شرع في الإسلام لمصلحتين أو ثلاث :
" الأولى " الدفاع عن المسلمين وأوطانهم ، فإن المشركين أخرجواالنبي ومن كان آمن معه من أهل مكة ثم بدءوهم بالقتال وساعدوهم عليهم أهل الكتاب ، وما زالوا يبدءونهم ويقاتلونهم حتى عجزوا ، وذلك قوله تعالى: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) [البقرة ١٩٠]

" الثانية " تأمين حرية الدين ومنع الاضطهاد فيه وهو قوله : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) [البقرة ١٩٣] هذا ما نزل في هذه السورة ٠

" الثالثة " ما في سورة التوبة من تأمين سلطان الإسلام وسيادته .

(الفائدة الحادية والعشرون) أن من شأن المسلمين طلب ما هو أثر لازم للإسلام من سعادة الدنيا والآخرة معا ــ كما تقدم في الفائدة الأولى ــ وإنما تتحقق الغايات ولوازم الأمور بطلبها والسعي لها ٠

فليس من هديه أن يترك المسلمون الدنيا ومعايشها وسياستها ويكونوا فقراء أذلاء تابعين للمخالفين لهم من الأقوياء ، ولا أن يكونوا كالأنعام لا هم لهم إلا في شهواتهم البدنية ، وكالوحوش التي يفترس قويها ضعيفها ٠

وهذا الجمع بين الأمرين مقتضى الفطرة ، والإسلام دين الفطرة ، وذلك هو ما أرشدنا الله إليه بقوله : (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق · ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) [البقرة ٢٠٠ ، ٢٠١] الخ ·

(الفائدة الثانية والعشرون) أن الأحكام الاجتهادية التي لم تثبت بالنص القطعي الصريح رواية ودلالة لا تجعل تشريعا عاما إلزاميا بل تفوض إلى اجتهاد الأفراد في العبادات الشخصية والتحريم الديني الخاص بهم ، وإلى اجتهاد أولى الأمر من الحكام وأهل الحل والعقد في الأمور السياسية والقضائية والإدارية ، ومأخذه الآية (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) [البقرة ٩] ووجهه : أن هذه الآية تدل على تحريم الخمر والميسر بضرب من الاجتهاد في الاستدلال ، وهو أن ما كان إثمه وضرره أكبر من نفعه فهو محرم يجب اجتنابه ،
وذلك ما فهمه بعض الصحابة فامتنعوا من الخمر والميسر ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يلزم الأمة هذا ، بل أقر من تركهما ومن لم يتركهما على اجتهادهما إلى أن نزل النص القطعي الصريح بتحريمهما والأمر باجتنابهما في سورة المائدة فحينئذ بطل الاجتهاد فيهما ، وأهرق كل واحد من الصحابة ما كان عنده من الخمر وصار النبي صلى الله عليه وسلم يعاقب من شربها ·

وبناء على هذه الفائدة كان يعذر كل أحد من سلف الأمة من خالفه أو خالف بعض الأخبار والآثار الاجتهادية غير القطعية رواية ودلالة ، ولم يوجبوا على أحد أن يتبع أحدا في اجتهاده كما يفعل الخلف المقلدون ·

وبناء على هذه الفائدة : لم يقبل الإمام مالك رحمه الله تعالى من المنصور أولا ، ولا من هارون الرشيد ثانيا أن يحمل المسلمين على العمل بكتبه ولا بالموطأ الذي هو أصح ما رواه من الأخبار المرفوعة وآثار الصحابة ، وواطأه عليه جمهور من علماء عصره ·

(الفائدة الثالثة والعشرون ـــ إلى السادسة والعشرين) بناء أمور الزوجية والبيوت وتربية الأولاد على أربع دعائم :
١ـــ قيام النساء بالأمور التي تقتضيها وظيفتهن كالرضاعة وغيرها من أمور تربية الأطفال ويقوم الزوج بالنفقة كلها ·
٢ـــ ألا يكلف كل منهما ما ليس في وسعه مما يدخل في حدود وظيفته والواجب عليه ·
٣ـــ لا يضار أحد منهما بالولد ، ولا بغيره بالأولى ، والمضارة دون تكليف ما ليس في الوسع ·
٤ـــ إبرام الأمور غير القطعية بالتراضي والتشاور ·

وهذه الفوائد ظاهرة صريحة في الآية : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) [البقرة ٢٣٣] ، ولو عمل المسلمون بهذه القواعد وأمثالها من أحكام الكتاب والسنة لكانوا أسعد الأمم في بيوتهم ، ولما وجد من أعدائهم ولا من زنادقتهم من يهذي بإسناد ظلم النساء إلى الإسلام ، أو حاجة المسلمين إلى تقليد غيرهم في شئ من إصلاح البيوت (العائلات) ·

(الفائدة السابعة والعشرون) جعل سد الذرائع الفساد والشر وتقرير المصالح وإقامة الحق والعدل في تنازل الناس بعضهم مع بعض مناطا للتشريع ، وأصلا من أصول الأحكام الاجتهادية ، وذلك أن الله تعالى علل به شرعه للقتال ، ومنته على نبيه داود وجنده بالنصر على عدوهم ، وما ترتب عليه من إيتائه الحكم والنبوة إذ قال : (فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) [البقرة٢٥١] ، وفي معناه تعليل الإذن للمسلمين في القتال أول مرة بآيات سورة الحج التي استشهدنا بها في قبل ذلك (ولولا دفع الله الناس

بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) [الحج ٤٠] ، وما هنا أعم ، لأنه يشمل درء هذه المفسدة في الدين وغيرها من الفساد الديني والدنيوي ، وهو المتأخر في النزول ٠

(الفائدة الثامنة والعشرون) : إن الإيمان بلقاء الله تعالى في الآخرة ، والاعتصام بالصبر الذي هو من أركان البر وكماله من ثمرات الإيمان ـــ سببان من أسباب نصر العدد القليل على العدد الكثير

وذلك قوله عز وجل : (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) [البقرة ٢٤٩]

(الفائدة التاسعة والعشرون) : تحريم أكل أموال الناس بالباطل في (الآية ١٨٨) وهي أصل لكل المحرمات ، ومن أدلتها تعليل تحريم الربا بعد الأمر بترك ما كان باقيا لأصحابه منه لدى المدينين بقوله تعالى : (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) [البقرة ٢٧٩] ، فإن الذي كان يقرض المحتاج بالربا إلى أجل كان يقول له إذا حل الأجل : إما أن تقضي وإما أن تربي ، فإن لم يجد ما يقضي به أنسأ له في الدين إلى أجل آخر بمثل الربا الأول فإذا حل الأجل الثاني قال له : إما أن تقضي وإما أن تربي ـــ وهلم جرا ـــ فكل ما يأخذه من هذه الزيادات باطل لا مقابل له وهو ظلم ، وأما العقود والمعاملات التي لا ظلم فيها يأكل مال أحد المتعاقدين بالباطل فليست من الربا ٠

(الفائدة الثلاثون) أن عمل كل إنسان له أو عليه لا يجزي إلا به ولا يجزي به سواه ، فلا ينفعه عمل غيره ولا يضره ،

وذلك قوله تعالى في خاتمة هذه السورة : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) [البقرة ٢٨٦] ويعززها قوله تعالى في الآية التي ورد أنها آخر آية نزلت من القرآن ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعها بعد آيات الربا من هذه السورة وهي : (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) [البقرة٢٨١] ، وإن لم ترد بصيغة الحصر ، وفيه آيات كثيرة ؛

فقد سبق بيان هذه الفائدة من فوائد العقائد في بعض السور المكية التي نزلت قبلها ، كقوله تعالى في سورة النجم : (ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) [النجم ٣٨ ، ٣٩] وكقوله في سورة الأنعام : (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) (الأنعام ٦٤) ويجد القارئ في تفسير هذه الآية ما يؤيد هذه القاعدة من الشواهد وما جعلوه معارضا لها مخصصا لعمومها من انتفاع الميت والحي بعمل غيره وما يصح منه وما لا يصح ، وكون الصحيح منه لا ينافي عموم القاعدة ٠

(الفائدة الحادية والثلاثون) بيان بطلان الشفاعة الوثنية التي كانت أساس شرك العرب ومن قبلهم وهي التقرب إلى غير الله تعالي بالدعاء وغيره ؛ ليشفعوا لهم عند الله تعالي ، فيكشف ما بهم من ضر ، ويؤتيهم ما طلبوا من نفع ، وزاد عليهم مشركوا أهل الكتاب والمؤمنون بالبعث الاعتماد على الشفعاء بالنجاة من عذاب الآخرة ، قال تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) [يونس ١٨] الآية ، وقد نفى الله تعالى هذه الشفاعة بقوله من هذه السورة خطابا لهذه الأمة : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) [البقرة٢٥٤]

وقوله في خطاب بني إسرائيل (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) [البقرة ٤٨] ، وفي معناها (آية ١٢٣) وأما الشفاعة الثابتة في الأحاديث فهي غير هذه ولا تنافي التوحيد ٠

(الفائدة الثانية والثلاثون) بناء أصول الدين في العقائد وحكمة التشريع على إدراك العقل لها واستبانته لما فيها من الحق والعدل ومصالح العباد ، وسد ذرائع الفساد ،

والشاهد عليه من هذه السورة قوله تعالى في الاستدلال على توحيده بآياته في السموات والأرض وما بينهما : (إن في خلق السموات والأرض ـــ إلى قوله ـــ لآيات لقوم يعقلون) [البقرة ١٦٤] ، ثم قوله في إبطال التقليد (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون

شيئا ولا يهتدون) [البقرة ١٧٠] وكذلك قوله تعالى بعد ذكر طائفة من الأحكام العملية (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) [البقرة ٢٤٢] ٠

رحم الله الشيخ محمد رشيد رضا ، وكل علماء سلفنا الصالح ، رحمة واسعة ٠

ثاني عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

(١) انظر : القرطبي ٠٠ الحامع لأحكام القرن (تفسير سورة البقرة)
السخاوي ٠٠ جمال القراء ٣٦/١
الفيروزابادي ٠٠ بصائر ذوى التمييز ١٣٤/١
الألوسي ٠٠ روح المعاني (تفسير سورة البقرة)
السيوطي ٠٠ الاتقان (النوع ١٧)
(٢) انظر : الشوكاني ٠٠ فتح القدير (تفسير سورة البقرة)
(٣) الآلوسي ٠٠ روح المعاني (تفسير سورة البقرة)
(٤) القرطبي ، الآلوسي (تفسير سورة البقرة) ، السيوطي(النوع١٧)
(٥) رشيد رضا ٠٠ تفسير المنار (تفسير سورة البقرة)
(٦) الفيروزابادي ٠٠ بصائر ذوي التمييز الاتقان (النوع ١٧)
(٧) الدارمي ٠٠ السنن ، كتاب فضائل القرآن ، باب " فضل سورة البقرة) وقال : حسن صحيح ٠
(٨) مسلم ٠٠ كتاب صلاة المسافرين ، باب : فضل قراءة سورة البقرة ٠
(٩) بصائر ذوي التمييز ١٣٤/١
(١٠) انظر : السخاوي ٠٠ جمال القراء ٩٠/١
الفيروزابادي ٠٠ بصائر ذوي التمييز ١٣٣/١
الآلوسي ٠٠ روح المعاني (تفسير سورة البقرة)
نثر المرجان ٩٩/١
(١١) انظر : ١٢٨/١ ، ١٣٣
(١٢) الواحدي ٠٠ أسباب النزول ص ٥٧
(١٣) انظر : الفيروزابادي ٠٠ بصائر ذوي التمييز ١٣٣/١
القرطبي ٠٠ الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة البقرة)
(١٤) الترمذي ٠٠ كتاب : فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل سورة البقرة ،وقال :حديث حسن صحيح ٠
(١٥) الدارمي ٠٠ السنن ٠٠ كتاب فضائل القرآن ، باب فضل سورة البقرة ٠
الشوكاني ٠٠ فتح القدير ٢٧/١
(١٦) القرطبي ٠٠ الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة البقرة)
(١٧) محمد الطاهر بن عاشور ٠٠ تفسير التحرير والتنوير ١٨٩/١
(١٨) د/ محمد حجازي ٠٠ التفسير الواضح ١٢/١
(١٩) انظر / سعيد حوى ٠٠ الأساس في التفسير ٦١/١ وما بعدها (بتصرف)
(٢٠) رشيد رضا ٠٠ تفسير المنار ٨/١ ٨ وما بعدها (باختصار)
(٢١) المراغي ٠٠ تفسير المراغي (تفسير سورة البقرة)
(٢٢) رشيد رضا ٠٠ تفسير المنار ٩٣/١ــ ١٠٢ (باختصار يسير)
(٢٣) رواه : الشيخان ، واللفظ لمسلم ٠
(٢٤) أخرجه : مسلم : كتاب الفضائل ، باب : وجوب امتثال ما قاله شرعا ٠٠ الخ ٠

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة آل عمران

أولاً:اسم السورة

لهذه السورة عدة أسماء منها : (١)
١- آل عمران :
وقد سميت بهذا الإسم : لأن اصطفاء آل عمران وهم : عيسى ويحيى ومريم ، وأمها ، عليهم السلام .. نزل فيه ما لم ينزل فى غيره ؛ إذ هو بضع وثمانون آية .
وقد جعل الله تعالى هذا الاصطفاء دليلاً على اصطفاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعله متبوعاً لكل محب لله ، ومحبوب له .(٢)
٢-الزهراء : (٣)
وذلك لما ورد فى صحيح مسلم من تسميتها والبقرة بـــ" الزهراوين "
فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إقرؤا الزهروااين .. البقرة وآل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة ، كأنهما غمامتان – أو غيايتان _ أو كأنهما فِرْقان من طير صواف ، تحاجان عن أصحابهما " . (٤)
٣-طيبة :
وذلك : لما حكاه النقاش من أن اسمها فى التوراة " طيبة " (٥)
وقد سميت به كذلك : لجمعها من أصناف الطيبين (٦) ، فى قوله تعالى : { الصابرين والصادقين والقانتين... } [آل عمران : ١٧]
لها كذلك من الأسماء :
٤- الكنز :
وذلك : لتضمنها الأسرار العيسوية. (٦)
٥- المجادلة :
وذلك لنزول نيف وثمانين آية منها فى مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نصارى نجران . (٦)
٦- سورة الإستغفار :
وذلك : لما فيها من قوله تعالى (٦) { الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار }[آل عمران : ١٧] .
٧- الأمان :
ويضيف الفيروز أبادى هذا الإسم أيضاً .(٨)
وذلك : لأن من تمسك بما فيها ..أمن من الغلط فى شأن عيسى عليه السلام .(٧)
٨- السورة التى يذكر فيها : آل عمران . والعلة واضحة .
ويضيف الإمام الألوسى – كذلك – ما يلى (٩)
٩- المغنية :
وحقاً إنها المغنية فى بيان صحة العقيدة الإسلامية ، وفساد ما سواها .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

عدد آياتها : (٢٠٠) مائتـــا آية .(١٠) .

عدد كلماتها : (٤٨٥) خمس وثمانون وأربعمائة آية .

عدد حروفها : (٤٤٢٤) أربعة وعشرون وأربعمائة وأربعة آلاف حرف .

ثالثاً : ترتيب السورة في المصحف و في النزول

١- فى المصحف :
بعد سورة " البقرة "، وقبل سورة " النساء" .
٢- فى النزول :
بعد سورة " الأنفال " ، وقبل سورة " الأحزاب " .

رابعاً : سبب نزول السورة

نزل صدر سورة آل عمران : فى وفد من نصارى نجران . وكانوا ستين راكبا ، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ، وعلى رأسهم :أميرهم ، ووزيرهم ، وحبرهم .
ولما قدموا إلى المدينة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعليهم الحيرات ، تكلم منهم ثلاثة :
فمرة قالوا : عيسى بن مريم إله ، لأنه يحى الموتى .
وتارة قالوا: هو ابن الله ، إذ لم يكن له أب .
تارة قالوا: هو ثالث ثلاثة ؛ لقوله تعالى (قلنا ، فعلنا) ولوكان واحدا لقال : قلت وفعلت .
وحاجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يدحض حجتهم ، ويزيل شبهتهم .
ولكنهم عاندوا ، حتى طالبهم النبى صلى الله عليه وسلم بالمباهلة ، فامتنعوا .
فأنزل الله تعالى من أول السورة إلى نيف وثمانين آية منها : تقريرا لما احتج به النبى صلى الله عليه وسلم وبيانا لعنادهم وجحودهم .
ويروى : أنهم انصرفوا إلى بلادهم ، على أن يؤدوا فى كل عام ألف حلة فى صفر ، ومثلها فى رجب ؛ فصالحهم النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك . (١١)

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

سورة آل عمران : مدنية .

سادساً : فضل السورة

من ذلك :
١-ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
" اقرؤا الزهرواين، البقرة وآل عمران؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة، كأنهما غمامتان – أو غيايتان، أو كأنهما فِرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما".(٤)
٢-وكان سعيد بن جبير يروى عن عمر قوله: من قرأ البقرة وآل عمران ليلةكان – أو كتب – من القانتين. (١٢)
٣-وكان يزيد بن الأسود الحرشى يحدث: أنه من قرأ البقرة وآل عمران فى يوم برئ من النفاق حتى يمسى، ومن قرأها فى ليلة برئ من النفاق حتى يصبح، قال: فكان يقرءوهما كل يوم وليلة سوى جزئه.(١٢)
٤-"وعن النبى صلى الله عليه وسلم تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما الزهروان وإنهما يأتيان يوم القيامة فى صورة ملكين ، يشفعان لصاحبهما حتى يدخلاه الجنة".(١٣)
هذا..
وننبه علي أن ما ذكره بعض المفسرين في فضلها من حديث أبي ابن كعب ... أنه حديث موضوع .
من ذلك : ما ذكره الزمخشري وغيره ، في كتبهم .. أنه صلي الله عليه وسلم قال :
" من قرأسورة آل عمران : أعطي بكل آية منها .. أمانا علي جسر جهنم "

أيضا : " من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة : صلي الله علي وملائكته حتي تحجب الشمس "
[للمزيد.. انظر : فضل سورة الفاتحة]

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

١- هذه السورة : تشرح كثيراً من مجملات سورة البقرة .(٩)
٢- فإذا كانت البقرة : بمنزلة إقامة الحجة ..!! فإن آل عمران : بمنزلة إزالة الشبهة .
ولهذا ..
تكرر فيها ما يتعلق بالمقصد ، الذى هو بيان حقيقة الكتاب .. من إنزال الكتاب ، وتصديقه للكتب من قبله ، والهدى إلى الصراط المستقيم .
وتكررت آية { قولوا آمنا بالله وما أنزل بكمالها }. [البقرة ١٣٦،آل عمران ٨٤]
ولذلك :
ذكر فى آل عمران : ما هو تال لما ذكر فى البقرة ، أو لازم لها .
فذكر فى البقرة : خلق الناس ، وذكر هنا : تصويرهم فى الأرحام .
وذكر فى البقرة : مبدأ خلق آدم ، وذكر هنا : مبدأ خلق أولاده .
٣- وألطف من ذلك :
أنه افتتح البقرة : بقصة آدم ، وخلقه من غير أم ، وذكر فى هذه : نظيره فى الخلق من غير أب ، وهو عيسى .
ولذلك : ضرب له المثل بآدم .
واختصت البقرة بآدم :
لأنها أول السور، وهو أول فى الوجود .
ولأنها الأصل ، وهذه كالفرع والتتمة لها ؛ فاختصت بالأغرب .
ولأنها : خطاب لليهود ، الذين قالوا فى مريم ما قالوا ، وأنكروا وجود ولد بلا أب؛ ففوتحوا بقصة آدم ؛ لتثب فى أذهانهم ، فلا تأتى قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشهد لها من جنسها .
ولأن قصة عيسى : قيست على قصة آدم ، والمقيس عليه لا بد وأن يكون كل هذا معلوما ؛ لتتم الحجة بالقياس .
٤- كانت قصة آدم – والسورة التى فيها – جديرة بالتقديم .
كل من السورتين بدأ بذكر الكتاب (١٤) .
وفى البقرة ذكر عقيب ذلك من يؤمن ومن لا يؤمن .
وفى آل عمران ذكر عقيب ذلك الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه، ثم الراسخين فى العلم الذين يقولون : كل من عند ربنا .
٥ – فى كل من السورتين : محاجة أهل الكتاب. (٧)
وفى البقرة : أفاض فى محاجة اليهود ، واختصر فى محاجة النصارى، وذلك لأن اليهود متقدمون ، فقدم .
وفى آل عمران : أفاض فى محاجة النصارى، واختصر فى محاجة اليهود .
وذلك : لأن النصارى متأخرون ، فأخر. (١٤)
٦-إذا كان سبحانه وتعالى : قد قال فى سورة البقرة ، فى صفة النار { أعدت للكافرين }[البقرة : ٢٤] .
ومع افتتاحها بذكر : المتقين والكافرين معاً!
فقد قال فى هذه السورة { وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين }[آل عمران : ١٣٣]
وكأن السورتين – على هذا – بمنزلة سورة واحدة .
٧- إذا كانت سورة البقرة : قد افتتحت بذكر المتقين ، {وأنهم المصلحون}[البقرة : ٢ ،٥] .
فقد اختتمت سورة آل عمران : بقوله تعالى { واتقوا الله لعلكم تفلحون } [آل عمران :٢٠٠].

وهذا تناسب واضح بين خاتمة هذه وفاتحة تلك .
٨- إذا كانت البقرة : قد افتتحت بقوله تعالى { الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك } [البقرة :٤].
فقد ختمت سورة آل عمران : بقوله تعالى { وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله } آل عمران:١٩٩]
وهذا – أيضا – تناسب واضح :بين خاتمة هذه وفاتحة تلك .
٩- يقول تعالى فى سورة البقرة { من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة .. } [البقرة :٢٤٥].
وقد ورد :أن اليهود لما نزلت هذه الآية قالوا : يا محمد ..!! افتقر ربك حيث يسأل عباده القرض ..!!
فنزل فى آل عمران – قوله تعالى: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء..} [آل عمران:١٨١] .
وهذا : يقوى الصلة والتناسب والتلازم بين السورتين .
١٠- فى البقرة ، قول إبراهيم { ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .. } [البقرة : ١٢٩] .
وفى آل عمران امتنان الله على المؤمنين بما فيه إعادة الترتيب لدعوة إبراهيم عليه السلام . (١٥)
{ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .. } [آل عمران:١٦٤].
١١- الدعاء فى آخر كل منهما . الدعاء فى البقرة يناسب بدء الدين .
والدعاء فى آل عمران دعاء أهل الدين (١٤) إلى غير ذلك : من وجوه الترابط والتناسب والتلازم .

ثامناً : هدف السورة

تهدف السورة إلى :
١- تكوين العقيدة الإسلامية الصحيحة عن طريق مناقشة أهل الكتاب وخاصة النصارى فى عقائدهم . (١٦)
وهذه المناقشة : إنما هى تصوير للجانب النظرى من المعركة الكبيرة الشاملة بين الجماعة المسلمة الناشئة ، وكل أعدائها الذين كانوا يتربصون بها، ويتحفزون من حولها ، ويستخدمون فى حربها كل الأسلحة ، وكل الوسائل ، وفى أولها : زعزعة العقيدة .
وهى فى صميمها : المعركة التى ما تزال ناشئة إلى هذه اللحظة بين الأمة الإسلامية وأعدائها ، إنهم : هم هم ، الملحدون المنكرون، الصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية. (١٧)
ويتم تكوين هذه العقيدة عبر خطوط عريضة ثلاثة : (١٧)
الخط الأول : بيان معنى الدين ، ومعنى الإسلام ، إذ ليس الدين هو كل اعتقاد فى الله ، إنما هو التوحيد المطلق الناصع البياض، وهو توحيد الألوهية التى يتوجه إليها البشر ، كما تتوجه إليه سائر الخلائق فى الكوب بالعبودية ، ثم توحيد القوامة على البشر، وعلى الكون كله ، فلا يقوم شئ إلا بالله تعالى ، ولا يقوم على الخلائق إلا بالله تعالى.
وتوضح السورة هذا الخط فى أكثر من ثلاثين موضعاً من السورة .
والخط الثانى : تصوير حال المسلمين مع ربهم، واستسلامهم له ، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه القبول والطاعة والاتباع الدقيق .
والخط الثالث : هو التحذير من ولاية غير المؤمنين، والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير ، وتقرير أنه : لا إيمان ولاصلة بالله مع تولى الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب ، ولا يتبعون منهجه تعالى فى الحياة .
ويستغرق هذا الهدف : الجزء الأول من السورة تقريباً .
٢- تكوين الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم فى : السلم والحرب . (١٦)

وذلك بتقرير : حقائق التصور الإسلامى ، والعقيدة الإيمانية .
وكذلك : بتوجيهات فى بناء الجماعة المسلمة على أساس تلك الحقائق .
إلى جانب : استعراض الأحداث والوقائع والمشاعر ، استعراضا يتبين منه بجلاء ..حال الجماعة المسلمة ، وقطاعاتها المختلفة فى ذلك الحين .
وهذا القسم – الثانى من السورة – يتولى كذلك :
عملية بناء التصور الإسلامى وتجليته – فى مجال الحرب ، وحديد المعركة ساخن ، كما يقول : شهيد الإسلام سيد قطب .
عملية تثبيت هذه الجماعة على التكاليف المفروضة على أصحاب دعوة الحق فى الأرض ، مع تعليمهم سنة الله فى النصر والهزيمة ، وتربيتهم بالتوجيهات القرآنية ، كما يربيهم بالأحداث الواقعية .
ويتم هذا التكوين للفرد المسلم والمجتمع المسلم ، فى : السلم والحرب ، عبر خطوط أربعة .
الخط الأول: الذى يمثل طرفا فى المعركة الجدلية بين أهل الكتاب والجماعة المسلمة فى المدينة – التى كانت مجالاً لتجلية حقيقة التصور الإيمانى، وفى مجالا لكشف حقيقة أهل الكتاب ، وكشف مدى انحرافهم عن دين الله ، وفضح تدبيرهم للجماعة المسلمة فى المدينة ، ثم تحذير الجماعة المسلمة من هذا كله .
والخط الثانى : الذى يمثل طرفا من المعركة – التى لم تكن باللسان إنما بالسيف والسنان – والتى كانت مجالاً لتجلية نواح متعددة من التصور الإيمانى، كما كانت مجالاً لتربية الجماعة المسلمة على ضوء المعركة، وكانت – كذلك – فرصة لتوجيه الجماعة المسلمة الى المضى فى طريقها، والإرتفاع إلى مستوى الأمانة الضخمة التى ناطها الله بها .
والخط الثالث : الذى يمثل عودة أهل الكتاب، ونكولهم عن مواثيقهم، وتحذير الجماعة المسلمة من متابعتهم،وتثبيت القلوب المؤمنة على ماينالها من الإبتلاء فى النفس والمال، وتهوين شأن أعداء الجماعة المسلمة .
الخط الرابع : الذى يتم فيه رسم صورة لحال هؤلاء المؤمنين مع ربهم، وتوضيح دبيب الإيمان فى قلوبهم حين يواجهون آيات الله فى الكون ، وحين توجههون إلى ربهم ورب هذا الكون بدعاء خاشع واجف .
وكذلك : دعوتهم إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى؛ لعلهم يفلحو ن .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

تتكون آيات هذه السورة من : خمس مجموعات .
المجموعة الأولى :
عبارة عن (٣٢آية)
ومن الآية الأولى، حتى الآية ٣٢ .
وفيها :
حديث عن : القرآن الكريم ، وإنزاله ، ومنزله سبحانه وتعالى، ونوعى آياته، والموقف الصحيح منهما .
وحديث عن : الكافرين ، وموقفهم من هدى هذا القرآن ، وما يستحقونه بسبب هذا الموقف .
وحديث عن: تزيين الحياة الدنيا للناس ، وتبيان أن الآخرة خير لمن كان تقيا..
وكأن فى هذا الحديث الأخير : تعليل لكفر الكافرين .
ثم .. حث للمؤمنين، ونهوض بهممهم ، إلى الله تعالى ورضوانه . وبعد ذلك .!!
بيان لكون الدين الوحيد المقبول عند الله : هو الإسلام، وأنه دين الله فى كل العصور، وأن هذا الإسلام : أنزله الله واضحا ، وأنه لا اختلاف فيه إلا بسبب البغى، وأنه معجزات واضحات ، وأن من يكفر به : فإنه باغ ظالم، غير مقبول ، وأن الله سيحاسبه .
ويلاحظ : أن هذا البيان، يعلمنا .. كيف نهتدى بالقرآن ..؟
وأن ذلك يكون بالتسليم له، والإيمان به .

كما يعلمنا .. كيف ندعو إلى هذا الإسلام ..؟
وكيف نقابل المحاجّة فيه .. ؟
وفيها كذلك : حديث عن أخلاق الكافرين، الذين يقتلون الأنبياء والعلماء، وعن العذاب المعد لهم.
وحديث – كذلك – عن نموذج – آخر – من الناس ، وموقفهم الرافض لهذا الدين، وسبب هذا الموقف .
ويلاحظ : أن هذا الحديث ينبهنا على هذه الأخلاق ، وهذه المواقف ، لنبتعد عنها ، ونحذر منها .
وفى نهاية المجموعة :
يتوجه الخطاب المباشر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر أربعة :
فيها ..
تحديد مواقف أهل الأيمان ، وتعليمهم صفحة من هداية الله لهم ؛ يواجهون بهذه المواقف وهذه التعاليم : مواقف الكافرين ، ويحققون بها – فى أنفسهم – هذا الدين ، ويرتقون بها إلى مقامات المتقين .
والمجموعة الثانية :
عبارة عن (٣١) آية .
من الآية ٣٣ حتى نهاية الآية ٦٣ .
وفيها : حديث عن : زكريا ، ومريم ، وعيسى ، عليهم السلام .
وتصحيح لمفاهيم أهل الكتاب عن عيسى عليه السلام ؛ إذ هتك النصارى بمفاهيمهم المنحرفة عن عيسى عليه السلام : كل مقومات الألوهية ومقتضياتها ..
فجاءت هذه المجموعة لتصحح ذلك كله، ولتعطينا تصوراً صحيحاً عن هذا الموضوع ، ينسجم مع المعانى التى قدمتها وبينتها لنا المجموعة الأولى؛ تحقيقا للحق؛ وإبطالاً لما عليه أهل الكتابين – من الإفراط والتفريط – فى شأن عيسى وأمه ، عليهما السلام .
ويلاحظ : أن خاتمة هاتين المجموعتين من الآيات متشابهة.
فخاتمة المجموعة الأولى قوله تعالى{ فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين }[الآية : ٣٢]
وخاتمة المجموعة الثانية قوله تعالى فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين [الآية٦٣]
ومعنى ذلك :
أن المجموعة الأولى، التى وضعت الأمور فى نصابها بالنسبة للقرآن ، والإسلام ، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجوب طاعته، وكذلك : المجموعة الثانية ، التى وضعت الأمور فى نصابها بالنسبة لعيسى عليه السلام المتفقتين فى الغاية وهى وضع الأمور فى نصابها – كما رأينا – تعتبران مدخلا، ومقدمة ضرورية ، لفتح حوار شامل مع أهل الكتاب .
وهذا ما تؤديه المجموعة الثالثة ، حسب ما يلى :-
المجموعة الثالثة :
عبارة (٣٦) آية
من الآية (٦٤) حتى نهاية الآية ٩٩ .
وفيها :
حوار شامل مع أهل الكتاب ؛ ليدخلوا فى الإسلام ، وليتحققوا بما دعت إليه السورة فى المجموعتين السابقتين من آياتها .
ويبدأ هذا الحوار : بالدعوة إلى عبادة الله وحده .
ثم .. تأنيب أهل الكتاب على دعواهم " إن إبراهيم يهودى ، أو نصرانى "، يعقبه : تبيان أن أولى الناس بإبراهيم عليه السلام : هو محمد صلى الله عليه وسلم .
ثم .. تبين المجموعة : رغبة أهل الكتاب فى إضلال المسلمين ،وتؤنبهم على الكفر ، وخلط الحق بالباطل، وكتمانهم الحق .
ثم .. تبين بعض خططهم لإضلال المسلمين ، بعض إعتقاداتهم التى تجعل بعضهم يستبيح الخيانة، مع أن القاعدة الكلية المقبولة عند الله تعالى هى الوفاء بالعهد .
ثم .. تقص علينا بعضاً من : أخلاقهم ومواقفهم ، وترد عليهم فيها .

ثم .. تدعوهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبالإسلام ، وتؤنبهم على أن توجههم إلى غير ذلك .

ثم.. تبين أن هؤلاء لا يستحقون الهداية ، إذ إنهم كانوا مؤمنين فكفروا .. إلا إذا اجتمع للواحد منهم : التوبة والإصلاح .

ثم.. يبين الله لهؤلاء الكافرين :ما أعده لهم من عذاب إن أصروا على الكفر وماتوا عليه .

ثم.. تبين – لهم ، ولنا – بعضا مما يدخل فى ما هية البر ، وأن النسخ قائم فى شريعتهم ؛ حيث إنهم بحجة عدم جواز النسخ يرفضون الدخول فى الإسلام .

هذا .. وإذ كانت قضية القبلة من شبههم ..!!

فإن كلاما عن بيت الله ، الذى بناه إبراهيم عليه السلام يأتى ، وفيه تبيان لشرف هذا البيت ، وفرضية الله على الناس حجه ، فضلاً عن استقباله فى الصلاة ، كما قررته سورة البقرة .

ثم ..تختم المجموعة :بنداء لأهل الكتاب ، تؤنبهم فيه على الكفر بآيات الله ...

وبنداء آخر : تؤنبهم فيه على صدهم عن سبيل الله ، وإبتغائهم العوج .

ويلاحظ : أن فى بداية هذه المجموعة وفى نهايتها قل يا أهل الكتاب ، مما يدل على أنها كلها من بدايتها إلى نهايتها ..

حوار _ كما ذكرنا – مع أهل الكتاب يدعوهم ، ويكشف لهم ، ويكشفهم ...إلخ .

بعد أن تم وضع الأمور نصابها بالنسبة : لعيسى عليه السلام ، والإسلام والقرآن، ورسالة محمد صلى عليه وسلم ووجوب طاعته .

وبهذه المقدمات الضروية والمعلومات الهامة : التى قدمتها .

المجموعات الثلاث : يكون الدخول في باقي السورة فى توجيه مباشر للأمة المسلمة، بخصوص علاقتها مع : أهل الكتاب ، وأهل الكفر .

المجموعة الرابعة :

عبارة عن (٤٩) آية .

من الآية (١٠٠) حتى نهاية الآية (١٤٨).

وفيها : النهى من خلال نداء المؤمنين ، وتحذيرهم من طاعة أهل الكتاب ؛ لما يترتب على ذلك من الردة عن الإسلام.

وبيان : أن الكفر لا ينبغي لنا بعد وجود القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم .

والحض على : الاعتصام بالله ، وأن في ذلك هداية إلى الصراط المستقيم .

والأمر : من خلال النداء للمؤمنين كذلك .. بالتقوى ، والموت على الإسلام، والاعتصام بحبل الله ، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الخير ... وبيان أن ذلك هو طريق الفلاح .

والتحذير : للمؤمنين – في نطاق النداء الثاني – مما فيه هلاكهم ، وعذابهم ، كالتفرق والاختلاف مثلما كان من أهل الكتاب .

وبيان : أن الذين اختلفوا منهم كانوا فئتين ، فئة تؤمن ، وفئة تستمر على فسوقها وكفرها .. وتوضيح عدم استواء هاتين الفئتين في ميزان الله سبحانه وتعالى .

والتأكيد على خيرية : أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنها لن يصيبها ضرر من خارجها إلا أذى طفيفا ، وأما النصر فهو لهم .

وحديث عن الكافرين ، وعدم نفع أموالهم ، ولا أولادهم ، ولا إنفاقهم مع استمرار كفرهم .

والنهى مرة أخرى – من خلال النداء الثالث للمؤمنين ، في هذه المجموعة – عن أن يتخذوا بطانة ومستشارين لهم من دون المؤمنين ، كائنا من كانوا، مع بيان الأسباب الداعية إلى هذا النهى .

والتذكير : بما يعين على الامتثال لهذا النهى .. فهاتان طائفتان مؤمنتان كادتا أن تفشلا بسبب حسن ظنهما بالمنافقين يوم أحد ، ثم إن عصمة الله لهما منعتهما من ذلك ..

كما أن نصرة الله للمؤمنين يوم بدر ينبغي أن تكون على ذكر منا ، بحيث تقتلع من قلوبنا ما يمكن أن نحذره حين لا نتخذ بطانة من دون المؤمنين .

وتذكير – أيضاً – بحكمة الله عز وجل ، التي تجعله يعذب من يشاء ، يغفر لمن يشاء .

وهذا التذكير وذاك : له تأثيراته في قضية النهى عن اتخاذ بطانة من الكافرين .
والأمر مرة أخرى – من خلال النداء الرابع للمؤمنين ، في هذه المجموعة – بما فيه بناء الجماعة المسلمة ، بعد أن حذرها من أخطر قضيتين يمكن أن نتساهل فيهما ، وهما : طاعة أهل الكتاب ، واتخاذ بطانة من دون المؤمنين .
حيث تأمر هذه المجموعة من الآيات ، من خلال النداء الرابع للمؤمنين ، بترك الربا ، والطاعة لله وللرسول ، وعدم الوهن والحزن .....الخ .
مما يظهر – من خلال هذه الأوامر – أن الطريق للبناء والفلاح والتقدم هو هذا ...وليس في اتخاذكم – يا مؤمنين ، حكاماً ومحكومين – بطانة من دونكم، أو طاعتكم – يا مؤمنين ، حكاماً ومحكومين – لأهل الكتاب .
ويلاحظ على هذه المجموعة بصفة عامة : أن فيها تثبيتاً لأهل الإسلام ، بالبقاء على الإسلام ، من خلال : ترك ما يؤدى إلى الردة ، وفعل ما يثبت على الهداية .
المجموعة الخامسة :
عبارة عن (٥٢) آية .
من الآية (١٤٩) حتى نهاية الآية (٢٠٠) وهى خاتمة آيات السورة :
وفيها :
النهى – من خلال النداء الخامس للمؤمنين – عن طاعة الكافرين .
والوعد من الله تعالى : بأنه سيلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، وينصرنا عليهم .
والتعليل لما حدث يوم أحد .. مما ظاهره التعارض مع هذا الوعد .
وعرض لبعض الصور مما حدث يوم أحد .
والنهى مرة أخرى – من خلال النداء الخامس – عن أن يقول المؤمنون عن إخوانهم الذين قتلوا يوم أحد لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا .
مع عرض لبعض الدروس من غزوة أحد .
والتصحيح – في هذه المجموعة – لبعض التصورات والمفاهيم الخاطئة عند الكثيرين من المؤمنين وغيرهم .
كما في قوله تعالى { ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيرا لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين } [آل عمران ١٧٨] .
وكما في قوله تعالى{ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة } [آل عمران: ١٨٠] .
وكما في قوله تعالى { لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم } [آل عمران: ١٨٨] .
ثم فى النهاية : تكون تعليمات وتوجيهات لأهل الإيمان .
ويلاحظ في المجموعة : أن بناء الجماعة عن طريق التربية من خلال الواقع ، ومحاسبة النفس على الخطأ .. يبرز بشكل واضح .
كما يلاحظ :
أن هذه المجموعة .. جاءت في النهى عن طاعة الكافرين مطلقاً .
وأن المجموعة التي سبقتها – في آيات السورة – جاءت في النهى عن طاعة أهل الكتاب مطلقاً
وأنهما بنيا على ما سبق من أسس وضعتها وبينتها المجموعات الثلاث السابقة .
فالأولى : وضحت الموقف الصحيح من القرآن والإسلام ....الخ .
والثانية : وضحت الموقف الصحيح من عيسى بن مريم عليهما السلام .
والثالثة : دخلت في حوار مع أهل الكتاب بناء على ما في المجموعتين السابقتين ، ودعتهما إلى الدخول في الإسلام ، وكشفت عن الصالح فيهم من الفاسد .
وجاءت هاتان المجموعتان – الرابعة والخامسة – لتبني الجماعة المسلمة ، بناء على ما سبق ، وتحذر من التميع والذوبان والضياع عن طريق طاعة أهل الكتاب ، أو طاعة الكافرين .

موضوعات هذه السورة : كثيرة ، وكلها تخدم هدف السورة العام .
ومن هذه الموضوعات :
١) الحديث عن القرآن الكريم ، وإنزاله ، ومنزله ، ونوعى آياته ، والموقف الصحيح منهما ،
(وذلك بيان لوحدانية الله وقيوميته وعزته وحكمته)
{ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم مرض فيتبعون ما تشابه منهم ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب } [الآية ٧] .
وفى الحديث عن تزيين الحياة الدنيا للناس ، وتبيان أن الآخرة خير لمن كانت تقياً.
يقول تعالى : { زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة الأنعام والحرث ذلك متاع الحياة . الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبؤكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين . فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد } [الآية ١٤، ١٥] .
٣). بيان أن الدين الوحيد المقبول عند الله هو الاسلام ، ، وأنه دين الله فى كل العصور، وأن من يكفر به باغ ظالم .
يقول تعالى :{ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلى من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن. يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب } [الآية ١٩] .
٤). الحديث عن أخلاقيات الكافرين، الذين يكفرون بالآيات ، ويقتلون الأنبياء والعلماء ، والعذاب معد لهم .
يقول تعالى :{ ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن . تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون }[الآية ٢٣ ، ٢٤] .
٥). تحديد مواقف أهل الإيمان ، التى يقابلون بها مواقف الكافرين ، ويرتقون بها إلىمقامات المتقين .
وفيها يكون الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم تعليماً لأمته .
{ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير } [الآية : ٢٦] .
{ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السماوات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير }[الآية ٢٩] .
{قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم } [الآية ٣١] .
{ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين } [الآية ٣٢] .
٦) تصحيح مفاهيم أهل الكتاب عن زكريا ومريم وعيسى عليهم السلام .
حيث هتك النصارى بمفاهيمهم المنحرفة عن عيسى عليه السلام كل مقامات الألوهية ومقتضاياتها .
وهذا التصحيح الذى تقدمه السورة : يعطينا تصوراً ينسجم مع ما سبق من موضوعات، كما يصلح لفتح حوار شامل مع أهل الكتاب ، نصل فيه إلى كلمة سواء .
{ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم آل عمران على العالمين ٠ فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين } [الآية ٣٣، ٦٣] .
٧) الحوار الشامل مع أهل الكتاب ، بعد تقديم المفاهيم الصحيحة لما وقعوا فيه واختلفوا حوله بغياً وصداً .
ويبدأ هذا الحوار الشامل بقوله تعالى { قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا . أربابا من الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون } [الآية ٦٤] .
وينتهى بنداء لأهل الكتاب كذلك : يؤنبهم فيه على الكفر بآيات الله ، وبنداء آخر يؤنبهم فيه على صدهم عن سبيل الله ، وابتغائهم العوج .

{ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ٠ قل يأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من ءامن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون }[الآية ٩٨، ٩٩] .
٨) النهى عن طاعة : أهل الكتاب ؛ حيث يريدون ردّ المسلمين وصرفهم عن دينهم ، والأمر بتقوى الله ، والإعتصام بحبل الله المتين .
{ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين }[الآية ١٠٠] .
٩) النهى عن : طاعة الكافرين عامة ، وكذلك عن اتخاذ البطانة والمستشارين منهم .
{ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الأيات إن كنتم تعقلون . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا . إن الله عليم بذات الصدور }[الآية ١١٨، ١٢٠] .
١٠) النهى عن مخالفة أوامر الله ، واقتراف محرماته ، والحث على طاعة الله ورسوله .
{ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون }[الآية ١٣٠، ١٣٢] .
١١) النهى عن : الوهن النفسي والحزن والخوف الضعف .
ولا { تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين }[الآية ١٣٩] .
١٢) الحديث عن غزوتى بدر وأحد ، بما يقدم للمسلمين خلال هذا الحديث وافر العبر والدروس ، الواجب الاعتبار بها .
١٣) تصحيح التصورات والمفاهيم الخاطئة ، التى كانت شائعة فى صدر الدعوة ، والتى ما زالت تلقى بظلالها على الكثيرين فى هذا الزمان، وفى كل زمان .
عن المقتول فى سبيل الله { ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين} [الآية ١٦٩ – ١٧١]
وعن حسابات الذين كفروا { ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيرا لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين }[الآية ١٧٨] .
وعن حسابات البخلاء { ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شرا لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامه ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير } [الآية ١٣٠] .
وعن حسابات المتخلفين عن الغزو فى سبيل الله، وحسابات الذين يكتمون ــ من أهل الكتاب ــ ما أنزل الله من الحق ويخبرون بغيره .
{ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم } [الآية ١٨٨] .
١٤– تهديد اليهود، وتكذيب مزاعمهم التى يتشدقون بها .
{ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد }[الآية ١٨١،١٨٢] .
١٥– التذكير بأخلاق المؤمنين ، ودعوتهم ، ومواقفهم .
{ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار }[الآية ١٩٠، ١٩١] .
١٦–النهى عن : الاغترار بالكافرين ، وسعة حيلتهم ، وكثرة أموالهم، وقدرتهم على التغلب والتصرف فى البلاد .
{ يقول تعالى لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد }[الآية ١٩٦ ، ١٩٧] .
١٧ – الأمر بالصبر ، والمصابرة ، وتقوى الله تعالى ؛ رجاء الفوز والفلاح .
يقول تعالى يأيها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون [الآية ٢٠٠] .

سوف نجتزئ مما يستفاد من هذه السورة الكريمة ــ وهو كثير ــ بعض الأوامر، وبعض النواهى، التى ينبغى المسارعة فى الإمتثال لها.

وكذلك : بعض الدعوات، والتى ينبغى أن تكون لسان حالنا مع الله دائما، والتى ينبغى كذلك أن نتوجه ــ دائما ــ إليه سبحانه وتعالى بها .

وذلك على النحو التالى

أولاً : الأوامر.

١- الأمر بطاعة الله ورسوله .

{قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين} [الآية ٣٢]

{وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون { [الآية ١٣٢]

٢- الأمر باتباع النبى صلى الله عليه وسلم

{ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم } [آية٣١]

٣- الأمر لأهل الكتاب باتفاقهم مع المسلمين في عبادتهم لله تعالي وعدم الإشراك به واتباع منهجه في التحليل والتحريم .

{ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون } [آية : ٦٤] .

٤- الأمر بالإنفاق مما يحب الإنسان .

{[لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شئ فإن الله به عليم } [آية : ٩٢] .

٥- الأمر بإتباع ملة إبراهيم حنيفاً .

{ فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا }[آية : ٩٥] .

٦- الأمر بالحج إلى بيت الله الحرام .

{ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } [آية : ٩٧]

٧- الأمر بتقوى الله .

{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون }[آية : ١٠٢]

٨- الأمر بالاعتصام بحبل الله ..

{ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم.. }[آية : ١٠٣]

٩ - الأمر بالمسارعة في طلب المغفرة .

{ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين }[آية ١٣٣]

١٠ - الأمر بالتسليم والتفويض إلى الله .

{ وما أصابكم يوم التقي الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين } [آية ١٦٦]

١١. الأمر بالصبر والتقوى .

{ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور }[آية : ١٨٦] .

{ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون } [آية : ٢٠٠] .

.... : النواهي

١- النهي عن مولاة الكفار .

قال تعالي { يأأيها الذين ءامنوا لا تخذوا بطانة من دونكم .. }[الآية ١١٨]

٢- النهي عن إتباع غير الإسلام .

قال تعالي { ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه .. } [الآية ٨٥]

٣- النهي عن طاعة الكفار .

قال تعالي{ يأأيها الذين ءامنوا إن تطيعوا الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين} [الآية ١٠٠] .

٤- النهي عن الفرقة والإختلاف .

قال تعالي { واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا.. } [الآية ١٠٣] .
٥- النهي عن أكل الربا
قال تعالي { يا أيها الذين ءامنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة .. }[الآية ١٣٠] .
٦- النهي عن الضعف والجبن والحزن .
يقول تعالى { ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين }[الآية ١٣٩] .
٧- النهي عن التشبه بالمنافقين وقول مثل أقوالهم .
يقول تعالى { يا أيها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم .. }[الآية ١٥٦] .
٨- النهي عن الاغترار والانبهار بتقلب الذين كفروا في البلاد .
يقول تعالى { لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد .. }[الآية ١٩٦] .
٩- النهي عن حسبان الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا .
يقول تعالى {ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون..} [الآية ١٦٩].
ثالثاً : الدعوات
١- ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب [الآية ٨].
٢- {ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد} [الآية ٩] .
٣- {.. ربنا إننا ءامنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار} [الآية ١٦] .
٤- {قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير* تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب } [الآيتان ٢٦ ، ٢٧].
٥-{ .. رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم }[الآية ٣٥].
٦- {.. رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم } [الأية ٣٦] .
٧- {.. رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء } [الآية ٣٨] .
٨- {.. رب اجعل لى آية .. }[الآية ٤١] .
٩-{ .. ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين } [الآية ١٤٧] .
١٠ – { ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار } [الآية ١٩١] .
١١- { ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن ءامنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار }[الآية ١٩٣] .

١-انظر :
القرطبي ... في " الجامع لأحكام القرآن " .
ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " .
والألوسي .. في " روح المعاني " .
والقاسمي في ... " محاسن التأويل " .
والسيوطي .. في " الإتقان في علوم القرآن " (النوع ١٧) .
٢ ـ القاسمي .. محاسن التأويل ٤/٤ .
٣- انظر :
القرطبي .. ، الألوسي .. ، القاسمي ... (تفسير سورة آل عمران) .
الفيروزابادي .. بصائر ذوي التمييز ١ /١٥٨ .
السيوطي .. الإتقان (النوع ١٧) .
٤- رواه :مسلم ، ك : صلاة المسافرين ، باب : فضل قراة القرآن ، وسورة البقرة .
٥- القرطبي .. الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة آل عمران)
٦- القاسمي .. محاسن التأويل (تفسير آل عمران)
٧- انظر : الألوسي .. في روح المعاني ، والقاسمي .. في محاسن التأويل (تفسير آل عمران)
٨- بصائر ذوي التمييز ١٥٨/١ .
٩- الألوسي . روح المعاني (تفسير آل عمران)
١٠- انظر :
مكي بن أبي طالب .. التبصرة ص ١٦٩ .
السخاوي ... جمال القراء ٢٠١/١ .
الفيروزابادي...... بصائرذوي ١٥٨/١ .
الآلوسي ... روح المعاني (تفسير آل عمران)
محمد غوث نثر المرجان (٣٨٧/١)
١١- انظر :
الواحدي أسباب النزول (سورة آل عمران) .
السيوطي الإتقان (النوع ١٧) .
الفخر الرازي التفسير الكبير .
القرطبي الجامع لأحكام القرآن .
النيسابوري غرائب القرآن .
د/ محمد حجازي التفسير الواضح .
١٢- انظر :
سعيد حوي الأساس في التفسير .
١٣ - أخرجه : أحمد في المسند ، عن بريده (انظر : بصائر ذوي التمييز ١٦٨/١) .
١٤ - رشيد رضا .. المنار (تفسير سورة آل عمران) .
١٥- د. عبد الحي الفرماوى ... مشروع برنامج تربوي ص ٤ وما بعدها .
١٦ - د/ محمد حجازي ...... التفسير الواضح (تفسير سورة آل عمران) .
١٧- سيد قطب .. في ظلال القرآن (تفسير سورة آل عمران) .

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة النساء

أولاً:اسم السورة

عدد آيات السورة :
(١٧٦) ستة وسبعون ومائة آية .
عدد كلمات السورة :
(٣٧٤٥) خمس وأربعون وسبعمائة وثلاثة آلاف كلمة.
عدد حروف السورة :
(١٤٥٣٥) خمسة وثلاثون وخمسمائة وأربعة عشر ألف حرف.

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

أ ــ فى المصحف ..
بعد سورة "آل عمران"، وقبل سورة "المائدة".
ب ــ فى النزول ..
بعد سورة "الممتحنة"، وقبل سورة " الزلزلة".

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

هذه السورة تسمى بما يلى :

١- سورة " النساء" (١)
وذلك : لأن ما تحتويه من أحكامهن .. لم يرد فى غير النساء.
٢- (سورة النساء الكبرى"(٢)
وذلك: لأن هناك سورة أخرى تسمى بـــ " سورة النساء الصغرى" وهى سورة "الطلاق "(٣)

رابعاً : سبب نزول السورة

لا يوجد لها ــ جملة ــ سبب نزول

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

السورة مدنية
وقد استغرق نزولها حسب الوقائع والحوادث، وما تقتضيه المشيئة الألهية: سبع سنوات، من العام الثالث الهجرى حتى العام التاسع منه .
وقيل أكثر من ذلك.

سادساً : فضل السورة

تحتوى هذه السورة على الفضل الكثير والخير العميم الذى ترشد إليه موضوعاتها ويوحى بها هدفها.
وسوف نقتصر هنا على بعض ماورد فى فضل بعض آياتها مما يدل على فضل الباقين.
فقد أورد الإمام ابن كثير فى تفسيره لهذه السورة ثلاث روايات يوضح بها هذا الفضل :
ففى الأولى : عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أنه قال: "إن فى سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لى بهن الدنيا وما فيها"
قوله تعالى: { إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريما }
[النساء:٣١].
وقوله تعالى{ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما }
[النساء:٤٠].
وقوله تعالى : { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما } [النساء : ٤٨].
وقوله تعالى :{ ... ولو أنهم إذّ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما } [النساء : ٦٤].
وقوله تعالى: { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا } [النساء: ١١٦].
وفى الرواية الثانية : عن ابن مسعود قال: " خمس آيات فى النساء أحب إلى الله من الدنيا جميعا.
وذكر الآيات السابقة... إلا أنه فى هذه الرواية ذكر مكان قوله تعالى: ... ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ...
قوله تعالى :{ ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما } [النساء: ١١٠].
وفى الثالثة: روى عن قتادة عن ابن عباس أنه قال:
ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمسس وغربت.
أولهن : { يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم } [النساء:٢٦].
الثانية: { والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما } [النساء: ٢٧].
الثالثة:{ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا } [النساء: ٢٨].
ثم ذكر قول ابن مسعود سواء فى الآيات الباقية، التى سبق ذكرها.
ومن غرائب القرآن التى لا ينبغى أن تفوت دون التنويه عليها والتنبيه إليها هنا: أن السورة الرابعة التى وردت فى النصف الأول من القرآن الكريم، وهى هذه السورة، والسورة الرابعة التى وردت فى النصف الثانى من سور القرآن الكريم، وهى سورة "الحج" تشتركان فيما يلى:
أ ــ كل منهما صدرت بــ يا أيها الناس .
ب ــ كل منهما أمرت الناس بالتقوى .
هذا ..
وقد قرنت سورة النساء الأمر بالتقوى بذكر المبدأ
حيث يقول تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم.
بينما قرنت سورة الحج الأمر بالتقوى بذكر المعاد

حيث يقول تعالى: يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم [سورة الحج].
هذا ..
ويطيب لنا أن ننبه إلي أن بعض المفسرين : ذكرفي فضلها جزءا من حديث أبي ابن كعب ، الذي حكم عليه علماء
الجرح والتعديل بأنه حديث موضوع .
مثال ذلك :
ماذكره الزمخشري والبيضاوي في تفسيريهما.. أن النبي صلي الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة النساء: فكأنما تصدق علي كل مؤمن ومؤمنة ورث ميراثا ، وأعطي من الأجر كمن اشتري محررا ، وبريء من الشرك ، زكان في مشيئة الله من الذين يتجاوز عنهم " [للمزيد ..انظر : فضل سورة الفاتحة]

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

إن صلة سورة النساء بسورة آل عمران : وثيقة جدا، وواضحة فى العديد من الموضوعات، والكثير من الآيات.
ومن ذلك :
١- الحديث عن التقوى فى السورتين:
إذا كانت سورة آل عمران قد أهتمت بأمر التقوى كثيرا وختمت بالحث عليها فى قوله تعالى يا أيها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون [الآية ٢٠٠] .
فإن سورة النساء بدأت بقوله تعالى { يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة..}[الآية ١] .
وذلك: من آكد وجوه المناسبات فى ترتيب السور، وهو نوع من أنواع البديع، يسمى فى الشعر"تشابه فى الأطراف" .
٢- الحديث عن اليهود فى السورتين:
فإذا كانت سورة آل عمران قد تحدثت عنهم فى مثل قوله تعالى :{ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ... }[الآية ١٨١].
فإن سورة النساء قد تحدثت عنهم كذلك فى قوله تعالى : { من الذين هادوا يحرفون الكم عن موضعه ويقولون سمعنا وعصينا ... }[الآية ٤٦].
٣- الأمر بطاعة الله ورسوله فى السورتين :
فإذا كان فى سورة آل عمران { قل أطيعوا الله والرسول }[الآية:٣٢] .
فإنه فى سورة النساء{ يا أيها آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ... } [الآية ٥٩] .
٤- الحديث عن الاستشهاد فى سبيل الله وفضله وطريقه فى السورتين.
فإذا كانت سورة آل عمران تحدثت عن الشهادة فى سبيل الله وفضل الشهداء عند ربهم فى قوله تعالى:
{ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون... }[الآية ١٦٩].
فإن سورة النساء وضحت طريق الاستشهاد فى سبيل الله بقوله تعالى : { فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه اجراً عظيما }[الآية ٧٤] .
٥- الحديث عن القرآن فى السورتين:
فإذا كانت آل عمران ذكرت أن القرآن الكريم: { منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات } [الآية ٧].
ففى النساء { أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا } [الآية ٨٢] .
٦- النهى عن الضعف والجبن فى السورتين.

فإذا كانت سورة ال عمران تقول فى قاعدة عامة للمؤمنين { ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين }.
فإن سورة النساء تقولها فى تطبيق عملى { ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون } [الآية ١٠٤] .
٧- الحديث عن دين الاسلام فى السورتين.
فإذا كانت آل عمران بينت خسران من يبتغ غير الإسلام دينا وعدم قبوله منه فى قوله تعالى : { ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين } [الآية ٨٥] .
فإن النساء بينت أن من يبتغيه أحسن دينا { ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا } [الآية : ١٢٥] .
٨- الحديث عن ملكية الله تعالى للسماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن
ففى آل عمران { ولله ما فى السماوات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم } [الآية : ١٢٩].
وفى النساء [ولله ما فى السماوات وما فى الأرض وكان الله بكل شىء محيطا }
[الآية ١٢٦]
٩ - الحديث عن المنافقين فى السورتين.
ففى آل عمران { وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون } [الآية ١٦٧].
وفى النساء { بشر المنافقين بأن لهم عذاب أليما } [الآية ١٣٨].
١٠ - النهى عن اتخاذ الكافرين أوياء من دون المؤمنين فى السورتين. ففى آل عمران { لا يتحذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين } [الآية ٢٨].
وفى النساء{ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا عليكم سلطانا مبينا }[الآية١٤٤].
١١- الحديث عن عناد اليهود فى السورتين.
ففى آل عمران { ألم تر إلى الذين أوتو نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوالن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون }[الآيتان٢٣ ، ٢٤].
وفى النساء { يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا } [الآية ١٥٣].
١٢- الحديث عن السيد المسيح عليه السلام فى السورتين .
فإذا كانت آل عمران تحدثت عن بداية أمره فى قوله تعالى { إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه أسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * يكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون }[الآيات ٤٥-٤٧].
سورة النساء تتحدث عن نهايته وبيان الصواب فى ذلك الأمر الذى ضل فيه الكثيرون، حينما يحكى عن اليهود قولهم { وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم الا إتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما }[الايتان ١٥٧ ، ١٥٨].
١٣- الحديث عن الراسخين فى العلم فى السورتين.
فإذا كانت آل عمران تحدثت عن الراسخين فى العلم من المسلمين فى قوله تعالى:
{ والراسخون فى العلم يقولون آمنا فى به كل من عند ربنا } [الآية ٧] .

فإن النساء تتحدث عن الراسخين فى العلم من أهل الكتاب فى قوله تعالى : { لكن الراسخون فى العلم منهم المؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك }[الآية ١٦٢].

١٤- الحديث عن وحدة الأنبياء فيما أوحى إليهم ووجوب الإيمان بهم فى السورتين .

فإذا كانت آل عمران أوجبت الإيمان بهم جميعا { قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون } [الآية ٨٤] .

فإن النساء تؤكد وحدتهم فيما أوحى إليهم{ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك ورسلا لم نقصصهم عليك }[الآيات ١٦٣، ١٦٤] .

١٥- الحديث عن بشرية عيسى عليه السلام وعبوديته لله تعالى فى السورتين.

ففى آل عمران{ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون}[٥٩]

وفى النساء{ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا وأستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا }[١٧١- ١٧٣] .

١٦- إذا كان تعالى قد ذكر قصة أحد، فى آل عمران، مستوفأة ..!

فقد ذكر فى هذه السورة : ذيلها، وهو قوله تعالى: { فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا .. }[النساء ٨٨].

حيث إن ذلك نزل فيما يتعلق بتلك الغزوة، كما روى عن البخارى ومسلم، وغيرهما.

١٧- إذا كان المولى سبحانه وتعالى: قد ذكر الغزوة، التى بعد أحد، فى قوله تعالى:{ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح .. .. }الخ.. [الآية ١٧٢] .

فإنه قد أشار سبحانه وتعالى إليها فى هذه السورة: بقوله تعالى: { ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ... }[النساء ١٠٤].

هذا ..

ومن أمعن نظره .. وجد كثيرا مما ذكر فى هذه السورة مفصلا لما ذكر فيما قبلها؛ وحينئذ: يظهر مزيد الارتباط، وغاية الاحتباك.

ثامناً : هدف السورة

أ – رسم مفرق الطريق بين منهج الله، ومناهج البشر، بالدقة والوضوح، الذى لاتبقى معه ريبة لمستريب.

ب ــ محو ملامح المجتمع الجاهلى، ونبذ رواسبه.

جـــ ــ بناء الجماعة المسلمة وإنشاء المجتمع الإسلامى، وحماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع.

مع الاهتمام بعملية تكييف ملامح المجتمع المسلم الجديد، وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه، وجلاء شخصيته الخاصة.

ء ــ توضيحها للتقوى وبيان الطريق إليها، وقضية الايمان والعمل الصالح، وقضية الموقف من القرآن، وكذلك الموقف من الرسول صلى الله عليه وسلم.

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

تتألف سورة النساء من ثلاثة عشر قسماً ، لكل قسم منها وحدته ، ويربط بين القسم السابق واللاحق روابط، ويربط بين أقسام السورة كلها روابط متعددة
والسورة بمجموعها تشكل كلاً متكاملاً :
القسم الأول :
عبارة عن (١٨) آية
من الآية (١) حتى الآية (١٨)
وهذا القسم : يطالب بالتقوى .. ثم يطالب – بعد التوضيح – بما هو من مقتضياتها .
القسم الثاني :
عبارة عن (١٠) آيات
من الآية (١٩) حتى نهاية الآية (٢٨)
وهذا القسم : يضيف إلى بناء التقوى : ذكر الأشياء التي ينبغي التحرز منها والابتعاد عنها في الحياة الاجتماعية ، لأنها تتعارض مع مفهوم تقوي الله
القسم الثالث :
عبارة عن (١٤) آية .
من الآية (٢٩) حتي نهاية الآية (٤٢)
وهذا القسم : يوضح ويدخل أموراً ذات صلة بقضية التقوى والعبادة والإيمان والعمل الصالح .
القسم الرابع :
عبارة عن (١٦) آية
من الآية (٤٣) حتى نهاية الآية (٥٨)
وهذا القسم : يأتي بتوجيهات تعمق الرؤية في شأن أهل الكتاب ، وجهودهم ، وضلالهم ، وحسدهم ، وكفرهم، كما يأتي بإنذار للكافرين وبشارة للمؤمنين ، ويأتى كذلك بالأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل .
القسم الخامس :
عبارة عن (١٢) آية
من الآية (٥٩) حتى نهاية الآية (٧٠)
وهذا القسم : موضوعه الرئيسي الذي يدور حوله ، هو "الطاعة " ، أي طاعة الله والرسول صلي الله عليه وسلم، أي طاعة الكتاب والسنة ، والإقتداء بهما.. وذلك : ركن عظيم من أركان التقوي .
القسم السادس :
عبارة عن (٢٣) آية
من الآية (٧١) حتى نهاية الآية (٩٣)
وهذا القسم :
يصحح مفاهيم مغلوطة عن التقوى ، ويبين مفاهيم ضائعة عنها .
ومن هذه ا لمفاهيم المغلوطة الضائعة : موضوع الطاعة والحركة الجهادية .. ففي هذا المقطع – وما بعده – تحريك للطاقة في الطريق الذي لا يصح أن تتوقف الحركة فيه ، وهو طريق الجهاد ، الذي لا يعرف الكثيرون كيف يقيمون أمر الله تعالي فيه .
كما يوضح لنا هذا المقطع محل القتال في التقوى ، وما هي مواقف المتقين حيث ينبغي القتال .
وفي القسم كذلك تأكيد لكلمة الإيمان ، إذ الإيمان الحق هو الذي ينبثق عنه القتال الحق .
القسم السابع :
عبارة عن (١١) آية
من الآية (٩٤) حتى نهاية الآية (١٠٤)

وفي هذا القسم : معان كثيرة وأمور تفصيلية توضح وتؤكد أنه لا تقوي إلا بجهاد وقتال .
القسم الثامن :
عبارة عن (٣١) آية
من الآية (١٠٥) حتى نهاية الآية (١٣٥)
وهذا القسم : يعرض لنا معاني وصوراً من مظاهر العدل ، الذي نزل به الكتاب ، والذي بموجبه ينبغي أن يحكم بين الناس .
القسم التاسع :
عبارة عن (٨) آيات
من الآية (١٣٦) حتى نهاية الآية (١٤٣)
وفي هذا القسم : تفصيل لماهية التقوى وماهية الكفر وماهية النفاق ، وبيان لبعض ما يدخل في كل من هؤلاء .
القسم العاشر :
عبارة عن (١٩) آية
من الآية (١٤٢) حتى نهاية (١٦٢) .
وفي هذا القسم : يبين الله تعالى جزاء كل فريق من المؤمنين والكافرين والمنافقين ، كما يحذر المؤمنين من موالاة الكافرين .
ويوضح الله كذلك : الحقائق التي وقع أهل الكتاب بسببها في بحار الأغاليط والأوهام والأكاذيب والأخطاء ، إلا الراسخين في العلم منهم ، فهم وحدهم الذي نجوا من ذلك.
القسم الحادي عشر :
عبارة عن (٨) آيات
من الآية (١٦٣) حتى نهاية الآية (١٧٠)
وهذا القسم : يقرر أن الله أوحي لمحمد صلي الله عليه وسلم كما أوحي لغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام .
كما يقرر : أن محمد صلي الله عليه وسلم قد جاء للناس أجمعين بالحق من ربهم ، وأن عليهم أن يؤمنوا به وبما جاء به .
القسم الثاني عشر :
عبارة عن (٣) آيات
من الآية (١١٧) حتى نهاية الآية (١٧٣) .
وهذا القسم : موجه لأهل الكتاب خاصة ، والنصارى منهم بالذات ، كي يحرروا العبادة لله عقيدة وسلوكاً ليكونوا من المتقين .
القسم الثالث عشر والأخير :
عبارة عن (٣) آيات
من الآية (١٧٤) حتى نهاية الآية (١٧٦) وهي خاتمة آيات السورة .
وهذا القسم : كما يقرر أن القرآن الكريم برهان من الله ، وأنه نور مبين .
يبين لنا كذلك : حكم الله في شأن صورة من صور الإرث ، وهو موضوع " الكلالة "
وكأن موضوع هذا القسم يربط نهاية السورة ببدايتها ، حيث بدأت السورة بقضايا الميراث وانتهت في هذا القسم بواحدة من قضايا الميراث كذلك .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

إن الحديث حول موضوعات سورة النساء يدور حول بيان ملامح المجتمع الجاهلي ، ومحاولة الإسلام الجادة نبذ ومحو هذه الملامح ، وخلق مجتمع جديد بدلاً منه .

ويتضح ذلك على النحو التالي .

بعض ملامح المجتمع الجاهلي في سورة النساء :

١- نجد مجتمعاً : تؤكل فيه حقوق الأيتام .

٢- نجد مجتمعاً : يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء .

٣- نجد مجتمعاً : يضع المرأة موضعاً غير كريم ، ويعاملها بالعسف والجور في كل أدورا حياتها .

٤- نجد مجتمعاً : تضطرب فيه قواعد الأسرة وأحوالها ، بسبب هبوط مركز المرأة فيه .

٥ - نجد مجتمعاً : تؤكل فيه الأموال بالباطل في المعاملات الربوية ، وتغتصب فيه الحقوق ، وتجحد فيه الأمانات، وتكثر فيه الغارات على الأموال والأرواح ، ويقل فيه العدل ، فلا يناله إلا الأقوياء ، كما لا تنفق فيه الأموال إلا رئاء الناس .

٦- نجد مجتمعاً : فيه النكاح على صورة هابطة وحيوانية مزرية ، كما حكته السيدة / عائشة ، وجاء في صحيح البخاري .

٧ - نجد مجتمعا ً : بلغت فيه كراهية البنات حد الوأد .

٨- نجد مجتمعا ً : يغلب عليه الشرك والوثنية الهابطة ، إذ نجد فيه آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب والأوثان، وكلها تعبد من الله .

٩- نجد مجتمعاً : هانت الحرب على أهله ، وفشت إراقة الدماء فيهم .

١٠- نجد مجتمعاً : يصدق عليه وصف جعفر بن أبي طالب له عند النجاشي في مواجهة رسول قريش إليه ، وقد جاء إليه ليسلمه المهاجرين عنده ، بقوله : " أيها الملك ... كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف .. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله وحده لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا : بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا : أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. إلخ " .

وهنا ملاحظات :

الأولي : أن مجتمع الجاهلية الأولي لم يكن – قطعاً – بلا فضائل ، بل كانت له فضائله ، التي تهيأ بها لاستقبال الرسالة الكبرى ، والتي استنقذها الإسلام ، من ركام الجاهلية استنقاذا ، ووجها الوجهة البناءة .

الثانية : أنه من تلك الجاهلية – التي ذكرنا بعض ملامحها – التقط الإسلام المجموعة التي قسم الله لها الخير، وقدر أن يسلمها قيادة البشرية ، فكون منه الجماعة المسلمة، وأنشأ به المجتمع المسلم ، ذلك المجتمع الذي بلغ إلى القمة التي لم تبلغها البشرية قط ، والتي ما تزال أملاً للبشرية ، يمكن أن تحاوله ، حيث يصح منها العزم على انتهاج الطريق .

أما كيف بني الإسلام الجماعة المسلمة ، وكيف أنشأ هذا المجتمع الإسلامي من ذاك الركام الجاهلي ...؟

فذلك ما توضحه النقطة التالية :

بعض ملامح المنهج الإسلامي لإنشاء وتثبيت المجتمع الإسلامي في سور النساء .

وذلك من خلال العمل على تطهير المجتمع من رواسب الجاهلية ، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية التي تكفل حماية هذه الملامح ، وتثبيتها في الواقع الاجتماعي .

١- نجد تقرير حقيقة : الربوبية ووحدانيتها ، وحقيقة : الإنسانية ، ووحدة أصلها الذي أنشأها منه ربها ، وحقيقة : قياسها على قاعدة الأسرة ، واتصالها بوشيجة الرحم ، واتخاذها ركيزة لتنظيم المجتمع الإسلامي على أساسها .

٢- ونجد تشكيل الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم ، والمجتمع الإنساني كله ، على أساس من : وحدة الربوبية ، ووحدة البشرية . (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ....)
٣- نجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكافلي للجماعة ، مستندة إلى تلك الركيزة :
في حماية اليتامى (وآتوا اليتامى أموالهم ...)
في حماية الإناث خاصة (ويستفتونك في النساء ...)
في حماية الأسرة وإقامتها على أساس ثابت (واللاتي تخافون نشوزهن ...)
في تنظيم علاقات الميراث ،والتكافل بين أفراد الأسرة الواحدة (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ....)
في حماية المجتمع من الفاحشة وتوفير أسباب الإحصان والوقاية (واللاتي يأتين الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن ..)
٤- نجد تحديد : لمعني الدين ، وحد الإيمان ، وشرط الإسلام ، ونظام المجتمع المسلم ، ومنهجه في الحياة .
٥- نجد حملة ضخمة للحض على : الجهاد بالنفس والمال ، والتنديد بالمعوقين ، والمبطئين والقاعدين عنه حماية ؛ للجماعة ، ودفاعاً عنها ، ونشراً لدينها لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .. .
٦- نجد حملة ضخمة على المنافقين ، وعلى موالاتهم لليهود في المدينة ، بينما هم يكيدون لدين الله ، وللجماعة المسلمة ، وللقيادة المسلمة كيداً شديداً ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول ...
٧- نجد بيان ما في عقيدة أهل الكتاب – من النصارى – من غلو ، بعد دفع المقولات اليهودية الكاذبة عن :عيسى عليه السلام ، وأمه الطاهرة { يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق} .
٨- نجد الأسس الأخلاقية الرفيعة ، التي يقام عليها بناء المجتمع المسلم .
٩- بعض أخبار المنافقين .
١٠- الكلام مع أهل الكتاب إلى ثلاث آيات في آخرها .
وملخص ما حوته السورة من الموضوعات :
١- الأمر بتقوى الله في السر والعلن .
٢- تذكير المخاطبين بأنهم من نفس واحدة .
٣- أحكام القرابة والمصاهرة .
٤- أحكام الأنكحة والمواريث .
٥- أحكام القتال .
٦- الحجاج مع أهل الكتاب .

حادي عشر : بعض الدروس المستفادة

بعد هذا العرض الذي ظهر فيه ومنه أن سورة النساء استخلصت أمة من ركام الجاهلية الأولي ، وصنعتها وفق المبادئ الإلهية ، وأهلتها لقيادة البشرية .
يمكن لنا أن نستفيد من ذلك :
١- أن البشرية هي البشرية لا تختلف من عصر لعصر ومن بيئة لبيئة ومن أمة لأمة إلا في الهداية والضلال .

٢- أن الجاهلية هى الجاهلية ، وأن لكل جاهلية أرجاسها وأدناسها، لا يهم موقعها من الزمان والمكان ، فحينما خلت قلوب الناس من : عقيدة إلهية، تحكم تصوراتهم، ومن شريعة : منبثقة من هذه العقيدة – تحكم حياتهم ، فلن تكون إلا جاهلية في صورة من صورها الكثيرة .

٣- أن الجاهلية التي تتمرغ البشرية اليوم في وحلها لا تختلف في طبيعتها عن تلك الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات التي عاصرتها في أنحاء الأرض ، حتى أنقذها الإسلام منها ، وطهرها وزكاها .

إن البشرية اليوم : تعيش في ماخور كبير .!!

ونظرة إلى : صحافتها ، وأفلامها ، ومعارض أزيائها ، ومسابقات جمالها ، ومراقصها ، وحاناتها ، وإذاعاتها .

ونظرة إلى : سعارها المجنون للحم العاري ، والأوضاع المثيرة ، والإيحاءات المريضة في الأدب والفن وأجهزة الإعلام .

إلي جانب : نظامها الربوي ، وما يكمن وراءه من .... إلخ .

إلى جانب : التدهور الخلقي ، والانحلال الاجتماعي ، الذي أصبح يهدد كل نفس وكل بيت وكل تجمع إنساني .

نظرة إلى هذا كله : تكفي للحكم على المصير البائس الذي تدلف إليه البشرية في ظل هذه الجاهلية .

٤- أنه لن يخرج عالم اليوم من جاهليته ، التي يتمرغ في وحلها – وكذلك كل عالم – إلا نفس المبادئ والقواعد والقوانين ، التي أخرجت عالم الجاهلية الأولي من وحلها .

والسبب واضح : فالناس هم الناس ، والأمراض والعلل هي هي مع فارق التحديث ، والجاهلية هي الجاهلية مع فارق التطور ، والمشرع المعالج من الأمراض وأدناس الجاهلية هو هو الله تعالي ، والقوانين التي وضعها المشرع للعلاج هي هي ، لا يشوبها نقص ، ولم يتطرق إليها تحريف .

٥- أن البعد عن العلاج الإلهي : استمرار في الانغماس في أدران الرذائل ، وارتماء في أحضان الجاهلية ، وإصرار على المعصية ، ومجافاة لمقتضيات الفطرة النقية .

ثاني عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

١- انظر : السخاوى . – جما ل القرآء ٣٦/١ . القاسمى . محاسن التأويل . (تفسير سورة النساء) .
٢- انظر : الزركشي .. البرهان في علوم القرآن (النوع ١٤)
٣- انظر : الفيروزابادي ... بصائر زوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١٦٩/١٠ .
٤- انظر : مكي بن أبي طالب .. التبصرة ص ١٧٩ .
السخاوي ....جمال القراء ٢٠١/١ .
الفيروزابادي .... بصائر ١٦٩/١ .
الآلوسي ....روح المعاني . (تفسير سورة النساء) .
نثر المرجان ....٥٤٢/١ .
٥ - يلاحظ : أن العدد في الحروف كما ذكره الفيروزابادى في بصائر ذوي التمييز هو (١٦٠٣٠) ستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفاً ، وهو يخالف ما ذكره صاحب (غرائب القرآن ، ومرد ذلك إلى أن أحدهما ذكر الحرف المشدد (أو المدغم) بحرف واحد ، وذكر الآخر بحرفين ، وعلى ذلك فلا خلاف بينهما ، كما قد يتبادر لبعض الأذهان .
٦- انظر : سيد قطب ... في ظلال القرآن (تفسير سورة النساء) .
٧- رشيد رضا ....تفسير المنار ....(تفسير سورة النساء) .
٨- ابن كثير ....تفسير القرآن العظيم (تفسير سورة النساء) .
٩- النيسابوري ......غرائب ورغائب الفرقان (تفسرة سورة النساء) .
١٠- الألوسي ... روح المعاني ....(تفسير سورة النساء) .
١١- سعيد حوي .... الأساس في التفسير ...... (تفسير سورة النساء) .

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة الأنعام

أولاً:اسم السورة

١- تسمى هذه السورة بسورة "الأنعام".(١)
وذلك لما روى فيها من ذكر الأنعام مكرراً،(٢) ومفصلاً لأحوالها .(٣)
ويلاحظ : أنه إذا كان لفظ "الأنعام" (٤) ورد فى غيرها ، فإنه لا يمنع من ذلك .
إذ أن التفصيل الوارد فى قوله تعالى ومن الأنعام حمولة وفرشاً..
لم يرد فى غيرها.(٥)
وكذلك : فإن أكثر أحكام الأنعام ، وجهالات المشركين فيها ، وفى التقرب بها إلى أصنامهم ؛ مذكورة فيها (٦).
٢- كما تسمى بـــ "سورة الحجة" .(٧)
وذلك : لأنها مقصورة على ذكر حجة النبوة .(٧)
وأيضاً (٧): تكررت فيها الحجة ، فى قوله تعالى { وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه }[الأنعام ٨٣] .
وقوله تعالى{ قل فلله الحجة البالغة }[الأنعام ١٤٩] .
وأيضاً : فهى أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

وعدد آياتها :
(١٦٥) مائة وخمس وستون آية .
عدد كلماتها :
(٣٠٥٢) ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة .
عدد حروفها :
(١٢٢٤٠) اثنا عشر ألفاً ومائتا وأربعون حرفاً .(١)

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

أ- فى المصحف :
بعد سورة "المائدة" ، وقبل سورة "الأعراف" .
ب- فى النزول :
بعد سورة "الحجر" ، وقبل سورة "الصافات" .

رابعاً : سبب نزول السورة

لا يوجد

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

فى الخبر : أن هذه السورة نزلت جملة واحدة بمكة وشيعها سبعون ألف ملك ، مع آية واحدة منها اثنا عشر ألف ملك ، وهى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو [الأنعام ٥٩] نزلوا بها ليلاً ، لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتبوها من ليلتهم .(٨)
وذلك .. سوى ست آيات نزلت بالمدينة على مرتين
فى الأولى ثلاث آيات وما قدروا الله حق قدره .. [الآيات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣] .
وفى الثانية .. ثلاث آيات قل تعالوا أتل ما حرم ربكم ..
[الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣].

سادساً : فضل السورة

اختصت سورة الأنعام – كما قال الأصوليون – بنوعين من الفضيلة .
أحدهما : أنها نزلت دفعة واحدة .
الثانى : أنه قد شيعها سبعون ألف من الملائكة .
وقد ذكر الدارمى فى مسندى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال : الأنعام من نجائب القرآن .
عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ما نزل على سورة من القرآن جملة غير سورة الأنعام ، وما اجتمعت الشياطين لسورة من القرآن جمعها لها ، وقد بعث بها إلى مع جبريل ، مع خمسين ملكاً ، أو خمسين ألف ملك ، يزفونها ويحفونها ، حتى أقروها فى صدرى ، كما أقر الماء فى الحوض ، ولقد أعزنى الله وإياكم بها عزاً لا يذلنا بعده أبداً ، فيها دحض حجج المشركين ، ووعد من الله لا يخلفه ".

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

أولاً : صلتها بالسور السبع الطوال .
ثانياً : صلتها بسورة "المائدة" قبلها .
ثالثا : صلتها بسور القرآن عامة .

أولاً : صلتها بالسور التى قبلها

هذه السورة والأعراف بعدها مكيتان .
جاء قبلهما : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ، وكلها مدنية .
وجاء بعدهما كذلك : الأنفال والتوبة، وهما مدنيتان .
وهذه السور : هى السبع الطوال
ويلاحظ :
أ- أن ما بعد سورة الأنفال والتوبة من سور النصف الأول من القرآن الكريم مكى كله .
ب- أن سور الربع الثالث للقرآن كلها مكية - أيضاً - إلا سورة النور : فإنها مدنية ، وسورة الحج : فإنها مختلطة .
جـ- وأن سور الربع الرابع من القرآن فهو مختلط ، وأكثر سورة الفصل ، التى تقرأ كثيراً فى الصلاة .
هذا ...
(١)* وإذا كانت سورة البقرة : جاءت لبيان أصول الإسلام وفروعه ، وكانت أجمع السور فى تحقيق هذا الغرض !!
فإن السور الثلاث الطوال بعدها :
جاءت متممة لذلك ، فيما يتصل بأهل الكتاب ، ومناقشة عقائدهم .
ثم جاءت سورة الأنعام ، متممة لذلك - كذلك - فيما يتصل بالمشركين ومناقشة عقائدهم .
ثم جاءت - ثالثاً - سورة الأعراف : متممة لذلك بيان سنن الله تعالى فى المرسلين وشئون أممهم معهم ، بما بعد حجة على أهل الكتاب والمشركين جميعاً .
ثم جاءت رابعاً - بعد أن تم تفصيل ما أجمل فى البقرة مما يتصل بالعقائد من الإلهيات والنبوات والبعث، فى السور الخمس - سورتا الأنفال والتوبة لبيان من أجمل فيها ما الأحكام ، ولا سيما أحكام القتال والمنافقين .
وبهذا الربط : تم بيان التناسق فى ترتيب سور الثلث الأول من القرآن الكريم .
(٢) كما أن لسورة الأنعام :
علاقة بسورة الفاتحة : حيث تشرح إجمال قوله تعالى رب العالمين .
وعلاقة بسورة البقرة : حيث تشرح إجمال قوله تعالى { الذى خلقكم والذين من قبلكم }[الآية ٢١] .
وقوله تعالى{ الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً } [الآية ٢٩] .
وعلاقة بسورة آل عمران : حيث تفصيل قوله تعالى{ والأنعام والحرث }[الآية ١٤]، وقوله تعالى{ كل نفس ذائقة الموت }
[الآية ١٨٥] .
وعلاقة بسورة النساء : من جهة ما فيها من بدء الخلق والتقبيح لما حرموه على أزواجهم وقتل البنات .
وعلاقة بسورة المائدة : من حيث اشتمالها على الأطعمة : بأنواعها .

ثانياً : صلتها بسورة المائدة :
١- إذا كانت سورة المائدة : قد جاء معظمها فى محاجة أهل الكتاب .. !!
فإن سورة الأنعام جاء معظمها ، بل كلها ، فى محاجة المشركين .
٢- إذا كانت سورة المائدة : تحدثت عن طعام أهل الكتاب .. !! .

فإن سورة الأنعام تحدثت عن طعام المشركين .

٣- وإذا كانت سورة المائدة : جاء فى آخرها قوله تعالى لله ملك السماوات والأرض وما فيهن على سبيل الإجمال .. !!

فإن سورة الأنعام افتتحها الله تعالى بشرح ذلك وتفصيله على النحو التالى :

إذ بدأ سبحانه بذكر خلق السماوات والأرض، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور .

وهذا بعض ما تضمن قوله تعالى وما فيهن .

ثم ذكر سبحانه أنه : خلق النوع الإنسانى ، وقضى له أجلاً ، وجعل له أجلاً آخر للبعث، وأنه منشئ القرون قرناً بعد قرن .

ثم قال تعالى قل لمن ما فى السماوات والأرض الخ ، فأثبت له ملك جميع المظروفات بظرف الزمان .

ثم قال تعالى وله ما سكن فى الليل والنهار فأثبت أنه ملك على جميع المظروفات بظرف الزمان .

ثم ذكر سبحانه - فى أثناء السورة - من الإنشاء والخلق لما فيهن من : النيرين، والنجوم ، وفلق الإصباح ، وفلق الحب والنوى ، وإنزال الماء ، وإخراج النبات والثمار بأنواعها ، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات .

وهذا كله - وغيره - بعض تفصيل قوله تعالى وما فيهن .

٤- إذا كانت سورة المائدة : جاء فيها إبطال ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام، وتوبيخ الكفرة على اعتقادهم الفاسد ، وافترائهم الباطل .. !!

فإن سورة الإنعام : جاءت لإثبات الصانع ، وتبيان دلائل توحيده ، بل قالوا: (إن فيها كل قواعد التوحيد) .

ثالثاً : صلتها بسور القرآن عامة

أ- لما كانت نعمه سبحانه مما تفوت الحصر ، ولا يحيط بها نطاق العد ... !! .

إلا أنها ترجع إجمالاً إلى :

إيجاد وإبقاء فى النشأة الأولى .

وكذلك : إيجاد وإبقاء فى النشأة الأخيرة .

وقد أشير فى :

فاتحة الكتاب إلى الجميع .

وفى الأنعام إلى الإيجاد الأول .

وفى الكهف إلى الإبقاء الأول .

وفى سبأ إلى الإيجاد الثانى .

وفى فاطر إلى الإبقاء الثانى .

لما كان الأمر كذلك .. !!

ابتدئت هذه السور الخمس بالتحميد .

والسور الأربع مكية ، وكل منها مشتمل على : دعوة الإسلام، محاجة المشركين .

ب- وكذلك يلاحظ أن السور الخمس التى بدئت بالحمد لله دون باقى سور القرآن الكريم :

قد أشارت فى فواتحها إلى الأصول العقدية وأركان الإيمان .

ففى فاتحة الكتاب : إشارة إلى الإيمان بالقضاء والقدر، وذلك بمقتضى مفهوم الربوبية وما تستلزمه من التسلم والإذعان المطلق لرب العالمين .

وفى فاتحة الأنعام: إشارة إلى الإيمان بالله تعالى الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، مع النعى على الذين كفروا به وعدلوا عنه .

وفى فاتحة الكهف : إشارة إلى الإيمان بالكتاب المنزل وبالرسول الذى أنزل عليه الكتاب .

وفى فاتحة سبأ : إشارة إلى الإيمان باليوم الآخر الذى له تعالى الحمد فيه أيضاً .

وفى فاتحة فاطر : إشارة إلى الإيمان بالملائكة الذين جعلهم الله رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع .

وفى هذا ما فيه من الإشارة إلى أن هذه العقيدة بأصولها ، وهذا الإيمان بأركانه : لنعمة كبرى ، ومنة عظمى تستحق منا أن نحمد الله تعالى – دائماً – عليها .

وأيضاً فى علاقتها بسورة المائدة ...

١- إذا كانت المائدة : قد ختمت بفصل القضاء ، كما فى قوله تعالى إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم بإنك أنت العزيز الحكيم [المائدة ١١٨].

فإن الأنعام : قد افتتحت بالحمد الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض.. [الأنعام : الآية ١] .

وهما متلازمتان .. كما قال سبحانه .. وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين [الزمر ٧٥].

٢- وقال الجلال السيوطى ..

إذا كان تعالى : قد ذكر فى آخر المائدة لله ملك السموات والأرض وما فيهن [المائدة ١٢٠] على سبيل الإجمال .. !!

فقد افتتح جل شأنه هذه السورة : بشرح ذلك وتفصيله، إذ بدأ – سبحانه – بذكر خلق السماوات والأرض .

وضم إليه تعالى : أنه جعل الظلمات والنور ، وهو بعض ما تضمنه فيهن.

ثم ذكر – عز اسمه – أنه خلق النوع الإنسانى ، وقضى له أجلاً ، وجعل له أجلاً آخر للبعث ، وأنه – جل جلاله – منشئ القرون ، قرناً بعد قرن.

ثم قال تعالى قل لمن ما فى السموات والأرض .. [الأنعام ١٢ وما بعدها] فأثبت أنه – جل وعلا – ملك جميع المظروفات لظرف الزمان .

ثم ذكر سبحانه : خلق سائر الحيوان ، من : الدواب ، والطير.

ثم خلق : النوم ، واليقظة ، والموت .

ثم أكثر – عز وجل ، فى أثناء السورة : من الإنشاء ، والخلق لما فيهن من النيرين والنجوم ، وفلق الإصباح ، وفلق الحب والنوى ، وإنزال الماء ، وإخراج النبات والثمار بأنواعها ، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات.

إلى غير ذلك ، مما فيه تفصيل قوله تعالى وما فيهن .

٤- إذا كان تعالى : قد ذكر فى سورة المائدة يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم .. [المائدة ٨٧] .

وذكر بعده كذلك ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة.. [المائدة ١٠٣].

وفى ذلك : إخبار عن الكفار أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله .. إفتراءً على الله عز شأنه .

وكان ذكر ذلك : على سبيل الإيجاز .. !! .

فقد ساق جل جلاله هذه السورة : لبيان حال الكفار فى صنعهم .
فأتى به : على الوجه الأبين ، والنمط الأكمل .
ثم : جاء لهم فيه ، وأقام الدلائل على بطلانه ، وعارضهم ، وناقضهم" .
إلى غير ذلك .. ما اشتملت عليه السورة .
فكانت "الأنعام" شرحاً لما تضمنته "المائدة" من ذلك على سبيل الإجمال ، وتفضيلاً وبسطاً وإتماماً وإطناباً .
وافتتحت بذكر الخلق والملك : لأن الخالق المالك هو الذى له التصرف فى ملكه ومخلوقاته .. إباحة ومنعاً ، وتحريماً وتحليلاً ؛ فيجب أن لا يعترض عليه سبحانه بالتصرف فى ملكه .(١٥)

ثامناً : هدف السورة

إن الهدف الذى تحاول إبرازه هذه السورة الكريمة من بدئها إلى منتهاها : هو موضوع العقيدة .
نعم .. موضوع العقيدة ، بكل مقوماتها ، ومكوناتها. (١٥)
وهى : لا تهدف إلى تصوير نظرية فى العقيدة ، ولا إلى جدل "لاهوتى" يشغل الأذهان والأفكار .
إنما تهدف إلى : تعريف الناس بربهم الحق ؛ لتصل من هذا التعريف إلى .. تعبيد الناس لربهم الحق ،
تعبيد : ضمائرهم وأرواحهم .
تعبيد : سعيهم وحركتهم .
تعبيد : تقاليدهم وشعائرهم .
تعبيد : واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد ، سلطان الله ، الذى لا سلطان لغيره فى الأرض ولا فى السماء .
ومما ينبغى ملاحظته : أن هذا الهدف – لكى نحكم بوصولنا إليه ونجاحنا فيه – يجب أن يتمثل فى تجمع حركى ، كما يجب أن يكون التجمع الحركى – فى الوقت ذاته – تمثيلاً صحيحاً ، وترجمة حقيقية لسلامة تصور هذه العقيدة .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

يقول صاحب الظلال عليه رحمة الله : لا يمكن تجزئة هذه السورة إلى مقاطع ، كل منها يعالج جانباً من الموضوع ، إنما هى موجات ... وكل موجة تتفق مع التى قبلها ...
ومع ذلك: فسوف نرى – كما يقول الاستاذ سعيد حوى عليه رحمة الله – نقاط علامٍ واضحة تحدد لنا أقسام السورة وفقرات كل قسم .
ولذا فتقسيم السورة فيما يرى صاحب الأساس على النحو التالى :
تنقسم سورة الأنعام إلى قسمين كبيرين ، وفى كل قسم منهما عدة فقرات :
والقسم الأول عبارة عن (٩٤ آية).
من الآية الأولى حتى نهاية الآية (٩٤).
ويبدأ: بصدر السورة وهو قوله تعالى{ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون }.
وهى آية: تتحدث عن الشرك وأهله فى الدنيا .

وينتهى: بقوله تعالى{ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون} [الأنعام ٩٤] .

وهى آية: تتحدث – كما هو واضح – عن الشرك وأهله يوم القيامة .

القسم الثانى : عبارة عن (٧١) آية.

من الآية (٩٥) حتى نهاية الآية (١٦٥).

ويبدأ: بقوله تعالى { إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله ربكم فأنى تؤفكون }[الأنعام ٩٥] .

وهى آية : تتحدث عما خلق الله للإنسان فى هذه الأرض .

وينتهى: بقوله تعالى{ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم الله إن سريع العقاب وإنه لغفور رحيم }[الآية ١٦٥].

وهى تتحدث – كما هو واضح – عن كون الإنسان خليفة على هذه الأرض.

هذا .. ويلاحظ على هذه الأقسام ما يلى :

أولاً : وضوح الصلة ، وقوة الترابط بين بداية القسم ونهايته .

ففى القسم الأول : كان الحديث عن الشرك وأهله ، بدأ الحديث عنه فى الدنيا ، وانتهى القسم بالحديث عنه فى الآخرة .

وفى القسم الثانى : كان الحديث عن الأرض وما خلق عليها ، بدأ ببيان كون ذلك للإنسان ، وانتهى بتبيان خلافة الإنسان على الأرض ومسئوليته عنها وعما خلق له عليها .

الملحوظة الثانية : أن كل قسم من هذين القسمين يتألف من عدة فقرات ، كل فقرة منها تعالج موضوعاً من الموضوعات ، أو يوضح معنى من المعانى .

بيد أن تحديد هذه الفقرات – على التسليم بإمكانية – يواجه صعوبة لقوة تلاحم معانى السورة ، وترابط وتداخل موضوعاتها .

وهذا هو ما دفع صاحب الظلال لأن يقول – كما قدمنا – "لا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع ، كل منها يعالج جانباً من الموضوع ، إنما هى موجات .. كل موجة تتفق مع التى قبلها وتكملها" .

الملحوظة الثالثة : أن هذا التقسيم ليس أمراً مقصوداً – فى هذه السورة أو فى غيرها – لذاته ، وإنما هى عملية تقريبية ومحاولة توضيحية لتيسير الكشف عن كنوز السورة ونفائس محتوياتها ، وتسهيل الوصول إلى ذلك ، والانتفاع به .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

تتعدد موضوعات السورة وتتعانق لتصل إلى الهدف الذى كانت من أجله، واهتمت بإبرازه.

أولاً : عرض أصول العقيدة .

ومن أبرز موضوعاتها :

١) قضية الألوهية والوحدانية .

وهى تسلك لتوضيح وخدمة هذه القضية أسلوبين هما :

أ- أسلوب التقرير ب- أسلوب التلقين .

أ- أسلوب التقرير :

فى مثل قوله تعالى :{ الذى خلق السموات والأرض وجعل .. }[الآية ١]
وفى مثل قوله تعالى :{ الذى خلقكم من طين }[الآية ٢] .
وفى مثل قوله تعالى:{ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم .. }
[الآية ٣] .
وفى مثل قوله تعالى :{ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم }
[الآية ١٣].
وفى مثل قوله تعالى :{ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير }[الآية ٨].
وفى مثل{ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبؤكم بما كنتم تعملون }[الآية ٦٠] .
وفى مثل{ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون }[الآية ٦١].
وفى مثل{ وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير }[الآية ٧٣].
وفى مثل{ فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون }[الآية ٩٥].
وفى مثل{ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً }[الآية ٩٦].
وفى مثل { وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر }
[الآية ٩٧].
وفى مثل{ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع }[الآية ٩٨] .
وفى مثل{ وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه .. }[الآية ٩٩].
وفى مثل{ بديع السماوات والأرض .. }[الآية ١٠١].
وفى مثل{ لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل }
[الآية ١٠٢].
وفى مثل{ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير }[الآية ١٠٣].
وفى مثل{ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه .. }[الآية ٩٩].
وفى مثل{ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم }[الآية ١٦٥].
ب- أسلوب التلقين:
فى مثل قوله تعالى{ قل لمن ما فى السماوات والأرض قل لله .. }[الآية ١٢]
وفى مثل{ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يطعِم ولا يُطعم .. }[الآية ١٤].
وفى مثل{ قل أى شئ أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم .. }[الآية ١٩].
وفى مثل { قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين }

[الآية ٤٠] .

وفى مثل{ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به .. }[الآية ٤٦].

وفى مثل{ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون }[الآية ٤٧].

وفى مثل{ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض .. }[الآية ٦٥].

وفى مثل{ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن الهدى هدى الله وأمرنا لنسلم لرب العالمين} [الآية ٧١].

وفى مثل{ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين } [الآية ١٤٩].

وفى مثل{ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين }[الآية ١٦١].

وفى مثل{ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين }[الآية ١٦٢].

وفى مثل{ قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شئ ولا تكسب كل نفس لا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبؤكم بما كنتم فيه تختلفون }

[الآية ١٦٤].

٢) قضية النبوة والرسالة :

ووظيفة الرسل محددة وواضحة، فى مثل قوله تعالى{ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين }[الآية ٤٨].

والمعاندون يطلبون منهم الآيات{ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه }[الآية ٣٧].

ويقسمون كذباً على الإيمان لو جاءت الآية{ وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها } [الآية ١٠٩] .

ويكفرون لو جاءت الآية{ ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين }[الآية ٧].

والمعاندون يطلبون أن ينزل عليه ملك{ وقالوا لولا أنزل عليه ملك .. }[الآية ٨] .

وليس ذلك من صالحهم{ ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون }[الآيتان ٨ ، ٩].

ويكفرون – كذلك – لو تنزلت الملائكة ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله.. [الآية ١١١].

وهذه هى طبيعتهم وجبلتهم وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين { فقد كذبوا بالحق لما جاءهم .. }[الآية ٤ ، ٥].

ولذلك فهم – فوق تكذيبهم – يستهزءون .. فلا تهتم بذلك{ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله.. }[الآيتان ٣٣ ، ٣٤].

والرسل كثيرون .. { وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء.. }إلى قوله{ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم} [الآيات ٨٣ – ٨٧].

٣) قضية الكتاب :

وهو القرآن الكريم .

فى مثل قوله تعالى{ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ..}[الآية ٩٢].

وفى مثل قوله{ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون }
[الآية ١٥٥] .

وفى مثل قوله تعالى{ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ .. }[الآية ١٩].

وغير القرآن.

فى مثل قوله تعالى{ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً .. }[الآية ٩١].

وفى مثل قوله{ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة .. }[الآية ٨٩] .

٤) قضية الملائكة :

فى مثل قوله تعالى{ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى }[الآية ١١١].

وفى مثل قوله{ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك }[الآية ١٨٥].

وفى مثل قوله{ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم }[الآية ٩٣].

٥) قضية اليوم الآخر :

فى مثل قوله تعالى{ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها .. }[الآية ٣١].

وفى مثل قوله{ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ... }
[الآية ٩٤].

وفى مثل قوله{ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا.. }[الآية ٣٠].

وفى مثل قوله{ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين }[الآية ٢٧].

وفى مثل قوله{ وله الملك يوم يُنفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة }[الآية ٧٣].

٦) قضية التسليم بالقضاء والقدر:

فى مثل قوله تعالى{ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين } [الآية ٥٩] .

وفى مثل قوله{ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين }[الآية ١٦٢].

ثانياً : موضوعات معاونة

١) عناد أهل الكتاب وضلالهم .

أ– للرسول الذين آتيناهم الكتاب يعرفون كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون [الآية ٢٠].

ب- للكتاب والذين آتيناهم الكتاب يعرفون أنه منزل من ربك بالحق [الآية ١١٤].

جـ- للدين إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ليست منهم فى شئ إنما أمرهم إلى الله ثم ينبؤهم بما كانوا يفعلون [الآية ١٥٩] .

٢) عناد المشركين وضلالهم .

{ ويوم يحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون * ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ..} [الآيات ٢٢- ٢٦].

{ وكذب به قومك وهو الحق .. }[الآية ٦٦].

٣) إبطال حجج المشركين بطريق الحوار والمناظرة .

{ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ..} [الآيات ٧٥ - ٨٢].

٤) إسقاط جميع الشركاء لله ولو كانوا من الجن .

{ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون } [الآية ١٠٠].

٥) بيان الحلال والحرام من المطعومات .

{ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ..} [الآيات ١١٨ - ١٢١].

{ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ..} [الآيات ١٣٨ ، ١٣٩].

ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقناكم [الآيات ١٤٤ - ١٤٦].

٦) عموم الرسالة للجن والإنس .

{ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا .. } [الآ١٣٠].

٧) بيان الوصايا العشر .

{ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ..} [الآية ١٥١ - ١٥٣].

٨) قاعدة الثواب والعقاب الإلهية.

{ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ... } [الآية١٦٠].

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

فى هذه السورة فوائد جليلة ودروس عظيمة .. منها :

١) السور مشتملة على : (١١)

دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين.

وذلك يدل على أن علم الأصول فى غاية الجلالة والرفعة .

وأيضاً : فإنزال ما يدل على الأحكام ، قد تكون المصلحة أن ينزل الله تعالى قدر الحاجة ، وبحسب الحوادث والنوازل .

وأما ما يدل على علم الأصول : فقد أنزله الله تعالى جملة واحدة .

وذلك يدل على: أن تعلم علم الأصول واجب على الفور ، لا على التراخى .

٢) إنه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغى ، أو المستهتر الفاسد ، أو الملحد الكافر ، ممكناً فى الأرض ، غير مأخوذ من الله .

ولكن الناس إنما يستعجلون .. إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ، ولا يرون نهاية الطريق .

ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجئ ، لا ترى إلا فى مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث .

والقرآن الكريم يوجه – مباشرة – إلى هذه المصارع – ونهايات الطريق – ليتنبه المخدعون الذين لا يرون – فى حياتهم القصيرة – نهاية الطريق ؛ فيخدعهم ما يرون فى حياتهم ، ويحسبونه نهاية الطريق .

وذلك ما يفهم ويستفاد من قوله تعالى فأهلكناهم بذنوبهم من قوله تعالى ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين [الآية ٦].

وهذا المعنى : يتكرر فى القرآن كثيراً .. لأنه يقرر حقيقة ، ويؤكد سنة ، ويوضح طرفاً من التفسير الإسلامى لأحداث التاريخ – كما يقول المرحوم سعيد حوى – .

نعم .. يتكرر .. ليقرر الله تعالى حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها ، وأن الله هو الذى يهلك المذنبين بذنوبهم .

وهذه سنة ماضية – ولو لم يرها فرد فى عمره القصير ، أو جيل فى أجله المحدود – ولكنها سنة تصير إليها الأمم ، حين تفشوا فيها الذنوب ، وحين تقوم حياتها على المعاصى .

كذلك : فإن هلاك الأجيال ، واستخلاف الأجيال ، من عوامله : فعل الذنوب فى جسم الأمم ، وتأثيرها فى إنشاء حالة تنتهى إلى الدمار ، إما بقارعة من الله عاجلة ، وإما بالإنحلال البطئ الفطرى الطبيعى ، الذى يسرى فى كيان الأمم – مع الزمن – وهو توغل فى متاهة الذنوب .

والتفسير الإسلامى للتاريخ – بشموليته وحديثه وصدقه وواقعيته – لا يغفل – فى نفس الوقت – أثر العناصر المادية – التى يجعلها التفسير المادى هى كل شئ – ولكنه يعطيها مكانها الذى تستحقه فى رقعة الحياة العريضة ..

ويبرز العناصر الفعالة الأخرى، – التى ينكرها الماديون المعاندون – حيث يبرز ..

أن قدر الله تعالى من وراء كل شئ .

ودور التغير الداخلى فى الضمائر والمشاعر ، والعقائد والتصروات .

وأثر السلوك الواقعى والعنصر الأخلاقى .

بل .. لا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التى تجرى بها سنة الله فى الحياة.

٣) أنه ما من شئ إلا وفى القرآن الكريم بيان عنه .(١٦)

وقد جاء ذلك فى هذه الآية المعجزة المتفردة ما فرطنا فى الكتاب من شئ .

حيث جاء هذا التقرير الإلهى فى سياق كلام الحكيم الخبير .. عن كون كل نوع من دواب الأرض ، وكل نوع من الطور : أمة ، لها من الخصائص والقوانين واللغة والعادات ، ما به تسمى "أمة" .

حيث يقول تعالى{ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون } [الآية ٣٨] .

وقد أعطانا علم "دراسات الحيوانات" – حتى الآن – من هذا : الكثير ، والكثير.

ويساعدنا فى هذا الفهم ، ويعطينا هذه الإفادة : أن هناك اتجاهين للمفسرين فى لفظ (الكتاب) فى الآية الكريمة.

حيث يذهب بعض العلماء .. إلى أن المراد بالكتاب هنا : هو اللوح المحفوظ .

بينما يذهب آخرون .. إلى أن المراد هو القرآن الكريم .

يقول العلامة الآلوسى – وهو ممن يذهبون إلى الرأى الثانى ، والمراد من الكتاب : القرآن ... فإنه ذكر فيه جميع ما يُحتاج إليه من أمر الدين والدنيا ، بل غير ذلك ، إما مفصلاً ، وإما مجملاً .

فقد روى البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود رضى الله عنه .. أنه قال: ولعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله .

فقالت له امرأة فى ذلك .. !! .

فقال : وما لى لا ألعن من لعن رسول الله وهو فى كتاب الله تعالى .

فقالت له : لقد قرأت ما بين الدفتين – تعنى المصحف – فما وجدت شيئاً مما تقول..!!.

قال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه .. أما قرأت وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا [الآية ٧] .

قالت : بلى .

قال : فإنه عليه الصلاة والسلام قد نهى عنه .

كما أخرج ابن جرير.. وابن أبى حاتم عنه أنه قال : "أنزل فى هذا القرآن كل علم ، وبين لنا فيه كل شئ ، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن".

وعن الشافعى رضى الله عنه : ليست تنزل بأحد فى الدنيا نازلة إلا فى كتاب الله تعالى الهدى فيها .

٤– بمناسبة الكلام عن الأمم التى أرسل الله لها رسلاً ، وسنة الله فيها ، وذلك فى قوله تعالى{ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون * فلما نسوا ما ذكروا فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين }
[الآيات ٤٢ – ٤٥].

يقول صاحب الظلال عليه رحمة الله :(١٦)

ولقد عرف الواقع البشرى كثيراً من هذه الأمم ، التى قص القرآن الكريم على الإنسانية خير الكثير منها ، قبل أن يولد "التاريخ" الذى صنعته الإنسان ! فالتاريخ الذى سجله بنو الإنسان حديث المولد ، صغير السن ، لا يكاد يعى إلا القليل من التاريخ الحقيقى للبشر على ظهر الأرض ! وهذا التاريخ الذى صنعه البشر حافل – على قصره – بالأكاذيب والأغاليظ ، وبالعجز والقصور عن الإحاطة بجميع العوامل المنشئة ، والمحركة للتاريخ البشرى ، والتى يكمن بعضها فى أغوار النفس ، ويتوارى بعضها وراء ستر الغيب ، ولا يبدو منها إلا بعضها، وهذا البعض يخطئ البشر فى جمعه ، ويخطئون فى تفسيره ، ويخطئون أيضاً فى تمييز صحيحه من زائفه – إلا قليلاً – ودعوى أى بشر أنه أحاط بالتاريخ البشرى علماً ، وأنه يملك تفسيره تفسيراً "علمياً" وأنه يجزم بحتمياته المقبلة أيضاً .. هى أكبر أكذوبة يمكن أن يدعيها بشر ! ومن عجب أنه بعضهم يدعيها ! والأشد إثارة للعجب أن بعضهم يصدقها ! ولو قال ذلك المدعى : إنه يتحدث عن (توقعات) لا عن (حتميات) لكان ذلك مستساغاً ... ولكن إذا وجد المفترى من المغفلين من يصدقه فلماذا لا يفترى ؟! .

والله يقول الحق ، ويعلم ماذا كان ولماذا كان . ويقص على عبيده – رحمة منه وفضلاً – جانباً من أسرار سننه وقدره ؛ ليأخذوا حذرهم ويتعظوا ؛ وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخى من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة ؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخى تفسيراً كاملاً صحيحاً، ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون ، واستناداً إلى سنة الله التى لا تتبذل .. هذه السنة التى يكشف الله لهم عنها .." .

"ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة ؛ وكان لها من التمكين فى الأرض ؛ وكان لها من الرخاء والمتاع ؛ ما لا يقل – إن لم يزد فى بعض نواحيه – عما تتمتع به اليوم أمم مستغرقة فى السلطان والرخاء والمتاع ؛ مخدوعة بما هى فيه ؛ خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله فى الشدة والرخاء ..

هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة ، ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة . والذين يدورون فى فلكها يبهرهم اللآلاء الخاطف ، ويتعاظمهم الرخاء والسلطان ، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمة ، وهى لا تعبد الله أو لا تعرفه ، وهى تتمرد على سلطانه ، وهى تدعى لأنفسها خصائص ألوهيته ، وهى تعيث فى الأرض فساداً ، وهى تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله .

ولقد كنت – فى أثناء وجودى فى الولايات المتحدة الأمريكية – أرى رأى العين مصداق قول الله سبحانه : فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ .. فإن المشهد الذى ترسمه هذه الآية .. مشهد تدفق كل شئ من الخيرات والأرزاق بلا حساب ! .. لا يكاد يتمثل فى الأرض كلها كما يتمثل هناك ! وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذى هم فيه ، وشعورهم بأنه وقف على الرجل الأبيض" وطريقة تعاملهم مع الملونين فى عجرفة مرذولة ، وفى وحشية – كذلك بشعة ! وفى صلف على أهل الأرض كلهم وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين .

كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية ، وأتوقع سنة الله ، وأكاد أرى خطواتها وهى تدب إلى الغافلين .{ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين }[الآيتان ٤٤ ، ٤٥] .

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فهناك ألوان من العذاب باقية.

والبشرية – وبخاصة الأمم التى فتحت عليها أبواب كل شئ – تذوق منها الكثير ، على الرغم من هذا النتاج الوفير، ومن هذا الرزق الغزير !

إن العذاب النفسى ، والشقاء الروحى ، والشذوذ الجنسى ، والانحلال الخلقى .. الذى تقاسى منه هذه الأمم اليوم ، ليكاد يغطى على الإنتاج والرخاء والمتاع ! وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء ! ذلك إلى جانب الطلائع التى تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية ، التى تباع فيها أسرار الدولة ، وتقع فيها الخيانة للأمة ، فى مقابل شهوة أو شذوذ .. وهى طلائع لا تخطئ على نهاية المطاف ! .

وليس هذا كله إلا بداية الطريق .. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا – على معاصيه – ما يحب: فإنما هو استدراج .. ثم تلا : فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون... (رواه ابن جرير وابن أبى حاتم) .

غير أنه ينبغى – مع ذلك – التنبيه إلى سنة الله فى تدمير الباطل: أن يقوم في الأرض حق يتمثل فى أمة .. ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .. فلا يقعدن أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجرى سنة الله بلا عمل منهم ولا كد ، فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق ، ولا يكونون أهله .. وهم كسالى قاعدون ... .

٥- بمناسبة قوله تعالى آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : (١٦)

ولا أعلم الغيب من قوله قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون [الآية ٥٠] .

يقول صاحب الظلال : "ولقد شاعت فى الجاهليات المتنوعة صور من "النبوءات" الزائفة ، يدّعيها "متنبئون" ويصدقها مخدوعون .. ومن بينها نبوءات السحر والكهانة والتنجيم والجنون ! حيث يدعى المتنبئون قدرتهم على العلم بالغيب ، والاتصال بالجن والأرواح ، وتسخير نواميس الطبيعة بالرقى ، والتعاويذ ، أو بالدعوات والصلوات ، أو بغيرها من الوسائل والأساليب . وتتفق كلها فى الوهم والضلالة ، وتختلف بعد ذلك فى النوع والشكل والمراسم والأساليب".

"فنبوءة السحر يغلب عليها أنها موكلة بالأرواح الخبيثة تسخرها للإطلاع على المجهول أو السيطرة على الحوادث والأشياء . ونبوءة الكهانة يغلب عليها أنها موكلة "بالأرباب !" . لا تطيع الكاهن ، ولكنها تلبى دعوته وصلواته وتفتح لها مغالق المجهول فى يقظته أو منامه وترشده بالعلامات والأحلام ، ولا تلبى سائر الدعوات والصلوات ! ولكنهما – نبوءة السحر ونبوءة الكهانة– تخالفان نبوة الجذب والجنون المقدس .

لأن الساحر والكاهن يدريان بما يطلبان ، ويريدان قصداً ما يطلبانه بالعزائم والصلوات ، ولكن المصاب بالجذب أو الجنون المقدس مغلوب على أمره ، ينطلق لسانه بالعبارات المبهمة وهو لا يعنيها ، ولعله لا يعنيها، ويكثر بين الأمم التى تشيع فيها نبوة الجذب أن يكون مع المجذوب مفسر يدعى العلم بمغزى كلامه ، ولحن رموزه وإشاراته.

وقد كانوا فى اليونان يسمون المجذوب "مانتى" **manti** ويسمون المفسر "بروفيت" **prophet** أى المتكلم بالنيابة عن غيره .

ومن هذه الكلمة نقل الأوربيون كلمة النبوة بجميع معانيها . وقلما يتفق الكهنة والمجذوبون ؛ إذ أن يكون الكاهن متولياً للتفسير والتعبير عن مقاصد المجذوب ، ومضامين رموزه وإشاراته ، ويحدث فى أكثر الأحيان أن يختلفا ويتنازعا لأنهما مختلفان بوظيفتهما الاجتماعية ، مختلفان بطبيعة النشأة والبيئة .

فالمجذوب ثائر لا يتقيد بالمراسم والأوضاع المصطلح عليها .

والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث – فى أكثر الأحيان – من آبائه وأجداده .

وتتوقف الكهانة على البيئة التى تنشأ فيها الهياكل والصوامع المقصودة فى الأرجاء القريبة والبعيدة ؛ ولا يتوقف الجذب على هذه البيئة ، لأنه قد يعترى صاحبه فى البرية ، كما يعتريه فى الحاضر المقصود من أطراف البلاد" .

وهكذا حلفت الجاهليات – ومنها الجاهليات التى انحرفت عن التصور الصحيح الذى جاءت به الرسالات السماوية – بمثل هذه التصورات الباطلة عن طبيعة النبوة وطبيعة النبى .

وكان الناس ينتظرون ممن يدعى النبوة مثل هذه الأمور ، ويطالبونه بالتنبؤ بالغيب تارة ، وبالتأثير فى النواميس الكونية عن طريق الكهانة أو طريق السحر تارة ..

ومن هذا المعين كانت اقتراحات المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولتصحيح هذه الأوهام كلها جاءت التقريرات المكررة فى القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول ومنها هذا التقرير :

قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم : إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ .. [الأنعام ٥٠] .

أقول : لقد أكرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أطلعه على بعض الغيوب ، وقد يكرم الله – عز وجل – مسلماً بأن يلهمه حقاً ، أو يجرى على لسانه كلمة حق ، وقد يكرم الله المسلمين باستجابة دعاء فيسخر لهم ما يسخر ولكن ذلك ليس هو الأساس الذى يبنى عليه المسلم مواقفه .

إن كثيرين من مسلمى عصرنا بسبب من رؤية كرامة لولى ، أو بسبب من إلهام حق لصالح: يتابعون صاحب ذلك فى كل شئ، وينسون تكليف الله لهم فى القيام بأمره ونصرة شريعته ، ووجوب التعاون مع المسلمين على الخير ، ووجوب كون المسلمين صفاً واحداً .

إن هذه الآية تصحح مفاهيم خاطئة كثيرة فى أمر النبوة وفى أمر الدخول فى الإسلام ، وفى أمر المتابعة عليه .

فليس رسول الله ملكاً؛ ومن ثم يّتابع ، وليس رسول الله عالماً بالغيب ، ومن ثم يُتابع. وليس بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم خزائن الله؛ ومن ثم يُتابع.

إنه يُتابع: لأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يعطيه الله ويعطى من تابعه ، وقد يكرمه الله بشئ من علم الغيب ، ثم هو أكرم على الله من ملائكته، ولكن صفته هى أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا زالت القضايا التى صححتها الآية محل غلط عند كثير من المسلمين : فالرّفاه عند بعضهم: هو الهدف من حمل الإسلام والمطالبة بإقامته ، إن الرفاه سيتحقق بإذن الله ، ولكن الدخول فى الإسلام والمطالبة بإقامته مطلوب من الإنسان فى كل حال وجد رفاه أو لم يوجد .

والصف الإسلامى يقدّم قيادته الراشدة .

وهذه القيادة واجبة الطاعة على تفصيلات .

وقد يكرم الله – عز وجل – هذه القيادة بإلهام .

ولكن : وجود القيادة ووجوب طاعتها .. ليس متعلقاً بذلك .

٦) نلاحظ هنا: أنه قد ذكر إبراهيم فى سورة الأنعام ، ومن قبل ذكر فى سورة البقرة وغيرها.

ويذكر فى سورة كثير من القرآن . وكذلك غيره من الرسل ، كما تذكر قصص أقوام فى أكثر من مكان .

والشئ الذي ينبغى أن نلاحظه: أنه فى كل مكان تذكر قصة ، أو تكرر ، فإنها تذكر لتخدم غرضاً يتفق مع السياق الخاص ، ويتفق مع السياق القرآنى العام ، ومن ثم فإنها تؤدى حيث ذُكرت غرضاً خاصاً فى محلها ، "فقصة إبراهيم عليه السلام فى سورة البقرة: تؤدى غرضاً ينسجم مع السياق الخاص والعام فى سورة البقرة ، حيث تخدم موضوع القيام حق القيام بأمر الله ، وقصة إبراهيم عليه السلام هنا: تخدم موضوع الإيمان بالله ، والطريق إليه ، وما يقتضيه هذا الإيمان من أمن ، وما يكافئ الله – عز وجل – به أهل التوحيد .

وهكذا .

ومن تأمّل كيف أنّ القصّة الواحدة تؤدى كل مرة غرضاً خاصاً فى سياقها الجزئى والكلى – إن من تأمل هذا الموضوع – ظهر له شئ من إعجاز هذا القرآن وكيف أنه لا تنقضى عجائبه .. !!

٧) قال ابن كثير بمناسبة قوله تعالى { ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً } [الأنعام ١٠٢].

وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى أنه قال فى تفسير هذه الآية : لما حضر أبا طالب الموت.

قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل ، فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه ، فإنا نستحيى أن نقتله بعد موته، فتقول العرب : كان يمنعهم ، فلما مات قتلوه.

فانطلق أبو سفيان وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأميّة ، وأبيّ ابنا خلف ، وعقبة بن أبى معيط ، وعمرو بن العاص، والأسود بن البخترى ، وبعثوا رجلاً منهم يقال له "المطلب" قالوا : استأذن لنا على أبى طالب ، فأتى أبا طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك ، فأذن لهم عليه .

فدخلوا عليه فقالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه ، فتنهاه عن ذكر آلهتنا ، ولندعه وإلهه ...

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ..... ، هل أنتم معطىّ كلمة ، إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم ، وأدّت لكم الخراج ؟

قال أبو جهل : وأبيك لنعطيكها وعشرة أمثالها.

قالوا : فما هى ؟

قال : قولوا لا إله إلا الله.

فأبوا واشمأزوا .

قال أبو طالب : يا ابن أخى قل غيرها ، فإن قومك فزعوا منها .

قال : يا عم : ما أنا بالذى يقول غيرها حتى يأتوا الشمس فيضعوا ما فى يدى ، ولو أتوا بالشمس فوضعوها فى يدى ما قلت غيرها إرادة أن يؤيسهم .

فغضبوا وقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمنّ من يأمرك .

فذلك قوله: فيسبوا الله عدواً بغير علم .

ومن هذا القبيل : وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها .

ما جاء فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ملعون من سب والديه . قالوا : يا رسول الله، وكيف يسبّ الرجل والديه ؟ قال : يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه ، ويسبّ أمّه فيسبّ أمّه . أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم فإن الداعية إلى الله: عليه أن يكون دقيقاً جداً فى طرق الخطاب، وفى مواقفه، وفى مناقشاته .

ففى كثير من الأحيان لا يؤدى التجريح المباشر والمواجهة به إلى خير فى نقل الإنسان من حالة إلى حالة أطيب وأكرم .

ووضع الأمور فى مواضعها: هو الحكمة .

والحكمة معنى زائد على العلم ، ومعرفة الحكم الشرعى .

٨) فى قوله تعالى{ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون }
[الآية ١١٢] .

– وصف الله – عز وجل – ما يوحى به شياطين الجن والإنس بـــ زخرف القول غروراً .

ولو أنك تأملت ما تقذف به المطابع فى العالم وما يقوله الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر من فلسفات وآراء: لوجدته كلاماً مزخرفاً فارغاً ، ظاهره غرور وباطنه فراغ ..!!

فليحذر المسلم أن يصغى بقلبه لكلام الذين لا يؤمنون بالآخرة .(١٦)

٩- فى قوله تعالى{ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون }[الأنعام ١١٦] .

ما يفيد : أن الأكثرية ليست دائماً على الحق .

وهذا يتكرر فى القرآن الكريم كثيراً .

إن هذه الآيات: توضح كيف أن الإيمان بالله .. له مستلزماته وله مقتضياته .

وأن الإيمان بالله.. يقتضى إيماناً بشريعته وتسليماً له ، ورفضاً لشرائع غيره.

لاحظ قوله تعالى :{ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون }[الآية ١٢١] .

هذا النص نزل فى مناقشة الكافرين للمسلمين فى شأن شريعة الذبائح .

فإذا كان هذا هو الشأن: فأى غفلة غفلها المسلمون حتى استطاع أعداؤهم أن يخدعوهم عن شريعة الله تحت شعارات العلمانية ، وفصل الدين عن الدولة ، وإبعاد الدين عن السياسة ؟

أى خديعة هذه الخديعة ؟

حتى أصبحت الدساتير والقوانين والأعراف والقيم والتصورات وغير ذلك: لا تنضبط بإسلام ، ولا تحكم به ، ولا تبالى .

ألا: ما أكثر الدوائر التى تسهر على هذا وتعمل له ..!!

وما أكثر الذين يساعدون هذه الأوضاع على الاستمرار ..!!

وما أكثر الذين يبررون لأنفسهم القعود عن العمل لتغيير هذه الأوضاع ..!!

بل ما أكثر الذين يبررون لأنفسهم مسايرة هذه الأوضاع والتعاون معها..!!

وفى كثير من الأحيان: تتظاهر الدولة الماكرة – وهى تجهد لتعطيل الإسلام وإحلال غيره محله – أنها تحترم الدين ولا تحاربه ..!!

وهو أسلوب: أثبت قدرته على إنهاء الدين وتجميده بحيث لم يتفوق عليه فى ذلك إلا الأسلوب الشيوعى حديثاً ، وأسلوب محاكم التفتيش قديماً .

يقول صاحب الضلال :

"وإن كان ينبغى أن ندرك دائماً: أسلوب الجاهلية التى تقيم نظاماً أرضياً ، الحاكمية فيه للبشر لا لله، ثم تزعم أنها تحترم الدين وتستمد منه أوضاعها الجاهلية ..

أن ندرك أن هذا الأسلوب من أخبث الأساليب وأمهرها على الإطلاق !

ولقد عمدت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية إلى هذا الأسلوب فى المنطقة التى كانت يوماً تحكم بشريعة الله، بعدما تبين لها فشل التجربة التركية التى قام بها البطل الذى صنعوه هناك ! ..

لقد أدت لهم هذه التجربة دوراً هاماً فى تحطيم الخلافة كآخر مظهر للتجمع الإسلامى فى الأرض .

ولكنها بعلمانيتها السافرة .. قد عجزت عن أن تكون نموذجاً يؤثر فى بقية المنطقة.

لقد انخلعت من الدين .. فأصبحت أجنبية عن الجميع ، الذين ما يزال الدين عاطفة غامضة فى قرارات نفوسهم ..

ومن ثم غيّرت الصليبية والصهيونية فى التجارب الكمالية التركية اللاحقة .

فوضعت على هذه التجارب ستاراً من الدين وتقيم له أجهزة دينية تضفى عليه الصفة ، سواء بالدعاية المباشرة ، أو باستنكار جزئيات هزيلة يوهم استنكارها أن ما عداها سليم .

وكان هذا من أخبث الكيد الذى تكبده الإنس والجن لهذا الدين .

على أن الأجهزة الصليبية والصهيونية التى تعمل بكل ثقلها فى هذه الفترة، وبكل تضامنها وتجمعها ، بل تجاربها وخبرتها: تحاول أن تستر الغلطة فى التجربة التركية ذاتها ، بأن تزعم أن هذه التجربة ذاتها كانت

حركة من حركات البعث الإسلامى، وأننا يجب ألا نصدقها فيما أعلنته عن نفسها من أنها (علمانية) تنبذ الدين وتعزله عن الحياة عزلاً ! .

ويجهد المستشرقون – وهم الأداة الفكرية للاستعمار الصليبى الصهيونى – فى تطهير التجربة الكمالية من تهمة الإلحاد جهداً كبيراً ..

ذلك أن انكشاف إلحادها جعلها تؤدى دوراً محدوداً .. وهو سحق آخر مظهر للتجمع الإسلامى فى الأرض .. ولكنها عجزت بعد ذلك أن تؤدى الدور الآخر – الذى تحاول أن تؤديه التجارب التالية فى المنطقة – من تفريغ المفهومات الدينية والحماسة الدينية فى أوضاع وأشكال جاهلية ! ومن تبديل الدين باسم الدين ! ومن إفساد الخلق والمقومات الفطرية الأصلية باسم الدين أيضاً ! ومن إلباس الجاهلية ثوب الإسلام لتؤدى به دورها فى كل البقاع التى ما يزال فيها عاطفة دينية غامضة ، وقيادتها بهذا الخطام المزور الخادع إلى محاضن الصليبية والصهيونية .. الأمر الذى عجزت عنه الحملات الصليبية والصهيونية طوال ألف وثلاث مائة عام ، من الكيد للإسلام ! " .

١٠- بمناسبة قوله تعالى : { وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس }[الأنعام ١٢٢] .

يروى ابن كثير هذا الحديث يقول : وفى مسند الإمام أحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله خلق خلقه فى ظلمه ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضلّ .

وبمناسبة هذه الآية يقول صاحب الظلال :

"إن هذه العقيدة تنشئ فى القلب حياة بعد الموت ، وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات .

حياة يعود بها تذوق كل شئ .

وتصور كل شئ تحت أشعته وفى مجاله جديداً كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذى نوّره الإيمان ".

هذه التجربة: لا تنقلها الألفاظ ، يعرفها فقط من ذاقها ..

والعبارة القرآنية: هى أقوى عبارة تحمل حقيقة هذه التجربة ؛ لأنها تصوّرها بألوان من جسمها ومن طبيعتها .

إن هذا الكفر: انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية ، التى لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب . فهو موت . وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة فى الوجود كله .. فهو موت .. وانطماس فى أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية .. فهو موت ..

والإيمان اتصال ، واستمداد ، واستجابة .. فهو حياة ..

إن الكفر: حجاب للروح عن الاستشراف والاطلاع .. فهو ظلمة ..

وختم على الجوارح والمشاعر .. فهو ظلمة ..

وتيه فى التيه وضلال .. فهو ظلمه ..

وإن الإيمان: تفتح ورؤية ، وإدراك واستقامة .. فهو نور بكل مقومات النور .

إن الكفر انكماش وتحجُّر .. فهو ضيق .. وشرود عن الطريق الفطرى الميسر .. فهو عسر .. وحرمان من الاطمئنان إلى الكنف الآمن .. فهو قلق ..

وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود ..

وما الكافر ؟

إن هو إلا نبته ضالة لا وشائج لها فى تربة هذا الوجود ولا جذور .. إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود ، فهو منقطع الصلة بالوجود .

لا تربطه به إلا روابط هزيلة من وجوده الفردى المحدود ، فى أضيق الحدود ، فى الحدود التى تعيش فيها البهيمة ، حدود الحس وما يدركه الحس من مظاهر هذا الوجود ! .

إن الصلة بالله والصلة فى الله: لتصل الفرد الفانى بالأزل القديم والأبد الخالد ، ثم تصله بالكون الحادث والحياة الظاهرة .. ثم تصله بمواكب الإيمان ، والأمة الواحدة الضاربة فى جذر الزمان ، الموصولة على مدار الزمان .. فهو فى ثراء من الوشائج وفى ثراء من الروابط .

وفى ثراء من "الوجود" الزاخر الممتد اللاحق الذى لا يقف عند عمره الفردى المحدود.

ويجد الإنسان فى قلبه هذا النور .. فتنكشف له حقائق هذا الدين ، ومنهجه فى العمل والحركة ، تكشفاً عجيباً ..

إنه مشهد رائع باهر .. هذا الذى يجده الإنسان فى قلبه حين يجد هذا النور ..

مشهد التناسق الشامل العجيب فى طبيعة هذا الدين وحقائقه .

ومشهد التكامل الجميل الدقيق فى منهجه للعمل وطريقته .

إن هذا الدين لا يعود مجموعة معتقدات وعبادات وشرائع وتوجيهات .. إنما يبدو "تصميماً" واحداً متداخلاً متراكباً متناسقاً .. متعاشقاً يبدو حياً يتجاوب مع الفطرة وتتجاوب معه ، فى ألفة عميقة ، وفى صداقة وثيقة ، وفى حب ودود ! .

ويجد الإنسان فى قلبه هذا النور .. فتنكشف له حقائق الوجود ، وحقائق الحياة ، وحقائق الناس ، وحقائق الأحداث التى تجرى فى هذا الكون وتجرى فى عالم الناس .. تنكشف له فى مشهد كذلك رائع باهر ..

مشهد السُنّة الدقيقة التى تتوالى مقدماتها ونتائجها فى نظام محكم ولكنه فطرى ميسر..

ومشهد المشيئة القادرة من وراء السُنّة الجارية تدفع بالسنة لتعمل وهى من ورائها محيطة طليقة ..

ومشهد الناس والأحداث وهم فى نطاق النواميس وهى فى هذا النطاق أيضاً .

ويجد الإنسان فى قلبه هذا النور .. فيجد الوضوح فى كل شأن ، وفى كل أمر ، وفى كل حدث ، يجد الوضوح فى نفسه ، وفى نواياه وخواطره وخطته وحركته ، ويجد الوضوح فيما يجرى حوله سواء من سنّة الله النافذة ، أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة .

ويجد تفسير الأحداث والتاريخ فى نفسه وعقله وفى الواقع من حوله كأنه يقرأ من كتاب .

ويجد الإنسان فى قلبه هذا النور .. فيجد الوضاءة فى خواطره ومشاعره وملامحه ، ويجد الراحة فى باله وحاله ومآله .

ويجد الرفق واليسر فى إيراد الأمور وإصدارها ، وفى استقبال الأحداث واستدبارها ، ويجد الطمأنينة والثقة واليقين فى كل حالة وفى كل حين .

١١) وبمناسبة قوله تعالى : فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام .

يذكر ابن كثير روايات متعدّدة لحديث

ثم يقول .. فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشدد بعضها بعضاً .

ونحن نجترئ منها برواية هى : (١٦)

روى عبد الرزاق عن أبى جعفر قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم ذكراً للموت ، وأكثرهم لما بعده استعداداً

قال : وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام.

قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟

قال : نور يّقذَف فيه ، فينشرح له وينفسح .

قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها ؟

قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت .

فهذه علامة إسلام المرء وعلامة إرادة الله به خيراً .

ومن تأمّل: رأى ضعف هذا المعانى فى عصرنا.. فلا حول ولا قوة إلا بالله .

١٢) وبمناسبة قوله تعالى : {ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصّعد فى السماء} [الآية ١٢٥].

نقول : اختلفت عبارات المفسرين القدماء فى شرح هذه الآية ، لعدم وضوح ما اتضّح فى عصرنا من أمرها .

وأحقُّ الحقِّ فيها ما قاله ابن كثير : "وقال ابن المبارك عن ابن جريج : ضيقاً حرجاً بلا إله إلا الله ، حتى لا يستطيع أن تدخله ، كأنما يَصّعد فى السماء من شدة ذلك عليه ..

وقال السّدى : كأنما يَصّعد فى السماء من ضيق صدره .

أقول : وفى هذا النص معجزة من أبلغ المعجزات القرآنية .

وذلك أنه تبيّن فى عصرنا: أنّ الضغط الجوى.. يخف كلما ارتفع الإنسان فى الجو حتى يتلاشى ، وأن الإنسان كلما صعد فى السماء .. ضاق صدره حتى يصل لدرجة الاختناق .

فتشبيه الحالة المعنوية بهذه الحالة الحسية التى لم تكن معروفة يوم نزول القرآن ، ولم تعرف إلا بعد ثلاثة عشر قرناً ونصف ، إن هذا لمعجزة عظيمة تشهد على أن هذا القرآن أنزله الذى يعلم السرّ فى السموات والأرض .

وإن مجئ هذه المعجزة فى سياق المعجزة التى بدأت بذكر طلب الكافرين آية ، وفى سياق الفقرة التى وصفت القرآن بالتفصيل والعدل والصدق: لقضية ذات دلالة .

١٣- مبدأ شخصية العقوبة .

... ولا تكسب كل نفس إليها عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبؤكم بما كنتم تختلفون [الآية ١٦٤] .

١٤- مسئولية الخلافة .

وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم [الآية ١٦٥] .

١- أنظر : القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (سورة الأنعام) .
السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١ .
الفيروز ابادى .. بصائر ذوى التمييز ١٨٧/١ .
٢- فى الآيات ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ .
٣- فى الآيات ١٤٢-١٤٤ .
٤- الأنعام .. تقال : للإبل والبقر والغنم ، ولا يقال لها أنعام ، حتى يكون فى جملتها الإبل (المفردات – مادة : نعم) .
٥- الزركشى .. البرهان (النوع ١٤) السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧) .
٦- القاسمى .. محاسن التأويل (تفسير سورة الأنعام) .
٧- الفيروز ابادى .. بصائر ذوى التمييز ١٨٧/١ ، ١٨٦ .
٨- القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (تفسير الأنعام) .
٩- أنظر : مكى بن أبى طالب .. التبصرة ص ١٩١ .
السخاوى .. جمال القراء ٢٠٢/١ .
الفيروز ابادى .. بصائر .. ١٨٦/١ ،
الآلوسى .. روح المعانى (سورة الأنعام) .
١٠- أى : صوت رفيع عال .
١١- أنظر : الفخر الرازى .. التفسير الكبير (سورة الأنعام) .
القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (سورة الأنعام) .
١٢- نجائب القرآن .. أى : أفاضل سوره .
١٣- رشيد رضا .. تفسير المنار (سورة الأنعام) .
١٤- الآلوسى .. روح المعانى (سورة الأنعام) .
١٥- سيد قطب .. فى ظلال القرآن (سورة الأنعام) .
١٦- سعيد خوى .. الأساس فى التفسير (سورة الأنعام) .
١٧- ابن كثير .. تفسير القرآن العظيم (سورة الأنعام) .

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة الأعراف

أولاً:اسم السورة

لهذه السورة من الأسماء :

١- الأعراف (١) :

وذلك : لأن "الأعراف" أغرب شئ فى السورة، كما أنه لم يرد له ذكر فى غير هذه السورة من سور القرآن الكريم(٢) .

والأعراف فى اللغة : هو المكان المرتفع المشرف .

وروى عن ابن عباس .. أنه قال : الأعراف .. سور له عُرف كعرف الديك .

وروى عنه أيضاً : أنه ..موضع عال على الصراط(٣) .

ويضيف الفيروزبادى : إلى ذلك ما يلى(٤) :

٢- "سورة الميقات"

وذلك(٤) : لاشتمالها على ذكر ميقات موسى مع ربه ، كما فى قوله تعالى{ ولما جاء موسى لميقاتنا }[الأعراف ١٤٣] .

٣- "سورة الميثاق" (١):

وذلك(١) : لاشتمالها على حديث الميثاق ، فى قوله تعالى{ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا } [الأعراف ١٧٢] .

٤- وتسمى بسورة "العلم" *لقوله تعالى فيها { فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين} [الأعراف ٧] .

وأشهر هذه الأسماء : الأعراف(٤)

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

عدد آياتها :

مائتان وست آيات (٢٠٦) .

عدد كلماتها :

ثلاث آلاف وثلاث مائة وخمس وعشرون كلمة (٣٣٢٥) .

عدد حروفها :

أربعة عشر ألفاً ومائتان وعشرة من الحروف(٥

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

أ- فى المصحف :
بعد سورة "الأنعام" وقبل سورة "الأنفال" .
ب- فى النزول .. بعد :
سورة "ص" ، وقبل سورة "الجن(٦) .

رابعاً : سبب نزول السورة

لم نعثر على سبب لنزولها.

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

وقد نزلت هذه السورة: بمكة، إلا الآيات من قوله تعالى{ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت ... } إلى قوله تعالى(٣) { إنا لا نضيع أحد المصلحين } [الآيات ١٦٣-١٧٠] .
والظاهر : أنها نزلت دفعة واحدة ، مثل الأنعام(٧) .

سادساً : فضل السورة

لم نعثر على آثار.

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

١) إذا كانت الأنعام: قد جمعت .. أصول العقائد ، وكليات الدين .. !! .
فإن سورة الأعراف : جاءت كالشرح والبيان لما أوجز وأجمل فى الأنعام (٨).
وهذا بصفة عامة.
وكذلك نجد بصفة خاصة أنه :

٢) لما كان فى الأنعام :
بيان الخلق .. كما فى قوله تعالى{ هو الذى خلقكم من طين }[الأنعام ٢].
وبيان القرون ، كما فى قوله سبحانه{ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض } [الأنعام ٦] .
والإشارة إلى ذكر المرسلين .. كما فى قوله تعالى{ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين }[الأنعام ٨٣-٨٦] .
وتعداد الكثير من هؤلاء المرسلين .. كما فى قوله تعالى{ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته

داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين }
[الأنعام ٨٤] .
وكان – كل هذا – فى الأنعام : على وجه الإجمال !! .
فقد جئ بسورة الأعراف بعدها .. مشتملة على شرح ذلك وتفصيله .
حيث بسط فيها قصة آدم ، وفصلت قصص المرسلين وأممهم ، وكيفية هلاكهم ، أكمل تفصيل(٩) .

٣) إذا كان فى سورة الأنعام: بيان القرون بقوله تعالى كم أهلكنا قبلهم من قرن (٣) [الآية٦] على وجه الإجمال .. !! .
فإن سورة الأعراف : فصلت ذلك ببيان قصص المرسلين وأممهم وكيفية
إهلاكهم أكمل تفصيل .

٤) إذا كان فى سورة الأنعام: قوله تعالى كتب على نفسه الرحمة(٤)
[الآية ١٢] موجزاً ..!! .
فقد بسطه فى الأعراف: بقوله تعالى { ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون }
[الأعراف ١٥٦] .

٥) إذا كان فى سورة الأنعام .. قوله تعالى{ هو الذى جعلكم خلائف الأرض.. }
[الآية ١١٥] .
فقد صدر سورة الأعراف : بخلق آدم الذى جعله فى الأرض خليفة .
كما قال فى قصة عاد{ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح }
[الآية ٦٩].
كما قال – كذلك – فى قصة ثمود { واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد }[الآية ٧٤] .
٦) لما قال تعالى فى الأنعام .. كتب ربكم على نفسه الرحمة
[الأنعام ٥٤] .
وهو : كلام موجز .. !! .
فقد بسط ذلك فى الأعراف ؛ حيث قال { ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا .. }
الآيات [الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧].

٧) لما قال تعالى فى آخر "الأنعام" { وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه }[الأنعام ١٥٣] .
وقال أيضاً{ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه } [الأنعام ١٥٥] .
فقد افتتح "الأعراف" .. بالأمر باتباع هذا الكتاب ؛ حيث قال : { كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولاتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون }[الأعراف ٢ ، ٣] .

٨) إذا كان تعالى فى آخر الأنعام: قد أمر باتباع الكتاب فى قوله تعالى{ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه }[الأنعام ١٥٥] على وجه الإيجاز .. !! .

فقد بدأ فى أول الأعراف بهذا الأمر مبسوطاً فى قوله تعالى{ كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون } [الأعراف ٢ ، ٣] .

٩) لما قال تعالى فى آخر الآنعام كذلك{ .. إنما أمرهم إلى الله ثم ينبؤهم بما كانوا يفعلون } [الأنعام ١٥٩] .

وقال كذلك : { ثم إلى ربكم مرجعكم فينبؤكم بما كنتم فيه تختلفون } [الأنعام ١٦٤] .

فقد ذكر سبحانه فى مفتتح الأعراف: ما يشرح هذه التنبئة ؛ حيث قال{ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين * فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين } [الأعراف ٦ ، ٧].

١٠) لما قال تعالى فى آخر الأنعام{ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون }[الأنعام ١٦٠] .

ولما كان ذلك : لا يظهر إلا فى الميزان .. !! .

فلقد افتتح الأعراف : بذكر الوزن ، حيث قال : { والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون }[الأعراف ٨ ، ٩].

حيث ذكر: من زادت حسناته على سيئاته ، ثم من خفت وهو على العكس.

ثم ذكر من تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وهم أصحاب الأعراف .

قلنا عند الحديث عن سورة الأنعام : أنهما – أى الأنعام والأعراف – يعالجان موضوع العقيدة وأصول الدين الإسلامى .

ونقول عند تحديد هدف سورة الأعراف:

١- إذا كانت الأنعام : تعالج موضوع العقيدة فى ذاتها ، وتعرض حقيقة هذه العقيدة، وتواجه الجاهلية العربية فى حينها – وكل جاهلية أخرى كذلك – مواجهة صاحب الحق الذى يصدع به (١٠) ..!!

فإن سورة الأعراف – وهى تعالج موضوع العقيدة كذلك – تأخذ طريقاً آخر، فهى تواجه التاريخ البشرى كله ، فى مجال رحلة البشرية كلها ، مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التى انطلقت منها.

والسورة فى هذا المدى المتطاول : تعرض "موكب الإيمان" من لدن آدم عليه السلام، إلى محمد عليه الصلاة والسلام.

تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة، ويمضى بها على مدار التاريخ؛ يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً بعد قبيل.

ونتبين فى تتابع سياقها :

كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى ؟

وكيف خاطبها هذا الموكب ؟

وكيف جاوبته ؟

وكيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد ؟

وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها، ومضى فى طريقه إلى الله ٠٠ ؟

وأخيراً : كيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين فى الدنيا والآخرة.

٢- كما أنها وهى تواجه التاريخ البشرى تبين:

أ- نشأة الإنسان ، وأهليته للسمو فوق الطبائع الأخرى فى الكون.

ب- خلافته على الأرض ، وتحديد مهمته عليها .

جـ- رسالة الله له ؛لتوضيح طريق الأمان من الزلل والوقاية من السقوط (١١).

٣- وكذلك وهى تعرض لأحداث المجتمعات البشرية ، منذ مباشرة الإنسان مهمته، حتى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأسباب سقوطها وفنائها : تعرض إلى صور الاعتداء المختلفة – كأمثلة الزلل والغواية – على الضعفاء، وإلى الظلم فى منعهم من مباشرة حقوقهم فى الحياة .

إما عن طريق القوة المادية لأصحاب الشأن فى المجتمع ، كما وقع لمجتمع "عاد" – قوم هود – فى جنوب شبه الجزيرة العربية.

أو عن طريق احتكار هؤلاء للثروة الاقتصادية فى الزراعة ، على نحو ما كان عليه مجتمع "ثمود" قوم صالح ، فى سواد العراق .

أو عن طريق الإنحراف فى استغلال المال فى التجارة ، كما كان عليه رجال الاقتصاد والمال فى مجتمع "مدين" قوم شعيب ، فى جنوب فلسطين على خليج العقبة .

أو عن طريق طغيان الحضارة المادية والاقتصادية ، والسياسية ، والعملية، كما وقع من بعض ملوك مصر على الضعفاء بين المصريين ، إبَّان ازدهار العهود المصرية القديمة (١١) .

٤- كما أنها تحدد مهمة الرسول ، وأنها من قبل الله تعالى ، وأنه ليس من مهمته تحديد وقت وقوع الأحداث الغيبية العالمية.

وأن عليه فى موقفه من المعارضين والمنكرين:

أ- التسامح فيما يتعلق بإهانتهم لشخصه.

ب- الإصرار والقوة فى إعلان الحق وتطبيقه.

جـ- الإعراض عن المحاولات الدنيئة التى تستهدف تجميد نشاطه فى الدعوة، أو نكوصه عنها .

٥- التأكيد على أن وجود الخير والشر كطرفين فى حياة المجتمعات البشرية : هو من ضرورات هذه الحياة ، إلى أن تنتهى مهمة الإنسان على الأرض .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

وتتكون هذه السورة من ثلاثة أقسام (٩):

القسم الأول : وهو عبارة عن .. مقدمة السورة ، وفقرة واحدة فقط .

القسم الثانى : وهو عبارة عن .. أربعة فقرات .

القسم الثالث : وهو عبارة عن .. فقرتين فقط .

فالقسم الأول :

وهو يبدأ بمقدمة عبارة عن (٩) آيات .

من أول السورة إلى نهاية الآية (٩) .

وفيها: حديث عن القرآن ، وخطاب مع الحبيب صلى الله عليه وسلم ، وتحذير لأمته ، وتهديد المعاندين ثم بفقرة تليها : عبارة عن (٤٩) .

من الآية (١٠) إلى نهاية الآية (٥٨) .

وفيها قصة آدم عليه السلام، ثم تعقيبات عليها.

والقسم الثانى :

يبدأ بالفقرة الأولى: وهى عبارة عن (٤٢) آية

من أول الآية (٥٩) إلى نهاية الآية (١٠٢).

وفيها: الحديث عن قصص ..قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط، وقوم شعيب ، وتعقيب على هذا القصص يتضمن عرضا لبعض سنن الله فى الأمم التى يُنزل عليها وحياً.

ثم الفقرة الثانية : وهى عبارة عن (٣٤) آية.

من أول الآية (١٠٣) إلى نهاية الآية (١٣٧).

وفيها : الحديث عن موسى عليه السلام وفرعون ، وبيان كيف كانت عاقبة فرعون ؟

ويقدم نموذجاً على الهدى المنزل ، وموقف الناس منه ، والناس هنا شعب مستضعف، ودولة ظالمة، على رأسها قائد متغطرس متأله .

ثم الفقرة الثالثة : وهى عن (٢١) آية

من أول الآية (١٣٨) إلى نهاية الآية (١٥٩).

وفيها: الحديث عن بنى إسرائيل ، وانحرافاتهم .

ويلاحظ: أن هذا المقطع ينتهى بإعلام بنى إسرائيل بأن أعلام الرسالة ستنتقل منهم إلى أمة أخرى..!!.

ومن ثمَّ : يأمر الله رسول الله صلى الله عليه وسلم – بأن يعلن فى ختام هذا المقطع عن رسالته إلى الناس جميعاً .

ثم : الفقرة الرابعة – وهى آخر فقرات القسم الثانى من السورة.

وهى عبارة عن (١١) آية

من الآية (١٦٠) إلى نهاية الآية (١٧١) .

وفيها: استمرار الحديث عن بنى إسرائيل فى عهد موسى عليه السلام ، وبعد عهده ، وبيان أن الإنحراف قد استقر فى النهاية عند بنى إسرائيل ، حتى استحقوا العقوبة الدائمة ، مع أنه قد أخذت عليهم أغلظ المواثيق فى أشد الحالات ، فلم يفوا بها بل نكصوا عنها .

القسم الثالث :

ويبدأ بالفقرة الأولى : وهى عبارة عن (١٦) آية.

من الآية (١٧٢) إلى نهاية الآية (١٨٨) .

ثم تكون الفقرة الثانية: وهى عبارة عن (١٧) .

من أول الآية (١٨٩) إلى نهاية الآية (٢٠٦) وهى نهاية السورة .

وهذا القسم: مبدوء بذكر المواثيق المأخوذة على البشرية كلها بالعبودية لله رب العالمين.

ومن بداية هذا القسم – بفقرتيه – ونهايته : ندرك مضمونه ، وأنه فى موضوع الربوبية والتوحيد ، والعبودية والشرك.

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

أ- تتنوع موضوعات السورة وتتعدد لتخدم القضية الأساسية ، وهى العقيدة وأصول الدين ، سواء أكان ذلك بطرق مباشرة أم غير مباشرة .

فهى تؤكد على :

١- الإيمان بالله ووحدانيته :

فى مثل قوله تعالى على لسان رسله وأنبيائه يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره [الأعراف ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥].

٢- الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم :

فى مثل قوله تعالى{ كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به }[الأعراف ٤] .

٣- الإيمان بالقرآن :

فى مثل قوله تعالى كتاب أنزل إليك

وفى مثل قوله تعالى{ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون }[الأعراف ٢٠٤] .
٤- الإيمان بالملائكة :
فى مثل قوله تعالى{ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم }[الأعراف ١١] .
٥- الإيمان بالله وباليوم الآخر :
فى مثل قوله تعالى{ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى }[الأعراف ١٨٧] ،{ ومنها تخرجون} [الأعراف ٢٥] ، { كما بدأكم تعودون }[الأعراف ٢٩] .
٦- الإيمان بالقضاء والقدر :
فى مثل قوله تعالى{ قل لا أملك لنفس نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله }[الأعراف ١٨٨] .
ثم تعرض كذلك إلى موضوعات عديدة ، كلها تخدم الموضوع الأصلى الذى تهدف إليه السورة .
فمن هذه الموضوعات:
٧- خلق الإنسان، ونشأته على هذه الأرض ، ومهمته فيها ، بعد خروجه من الجنة.
وذلك فى قوله تعالى{ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين }[الأعراف ١١] .
٨- التعرض لبعض مشاهد القيامة على نحو : مؤثر يذكر بهذا اليوم ، ويحذر من تكذيب آيات الله التى جاء بها الرسل إلى بنى آدم [الآيات من ٣٥ – ٥٣ = ١٩ آية].
٩- ذكر جانب من تاريخ المجتمعات الإنسانية وموقفها من أنبياء الله ورسله فى دعوتهم إلى الوحدانية.
وذلك فى: قصة قوم نوح .. الآيات ٥٩ – ٦٤ .
وقصة قوم هود .. الآيات ٦٥ – ٧٢ .
وقصة قوم صالح .. الآيات ٧٣ – ٧٩ .
وقصة قوم لوط .. الآيات ٨٠ –٨٤ .
وقصة قوم شعيب .. الآيات ٨٥ – ١٠٢ .
وقصة موسى مع قومه .. الآيات ١٠٣ – ١٦٨ .
١٠- الحديث عن الساعة وغيبية العلم بها {يسألونك عن الساعة } [الأعراف ١٨٧] .

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

أولاً : بيان أصول التشريع ، وفى السورة منها ٩ أصول (٧):
الأول : المشرع هو الله تعالى .
قال تعالى { اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم }[الآية ٣] .
الثانى : تحريم التقليد ، والأخذ فى الدين بآراء البشر .
قال تعالى{ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء } [الآية ٢٨] .
الثالث : تعظيم شأن النظر العقلى لتحصيل العلم بما يجب الإيمان به .
قال تعالى{ أفلا تعقلون }[الآية ١٦٩] .
وقال تعالى{ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها } [الآية ١٧٩].

الرابع : تعظيم شأن العلم النقلى والعقلى .
قال تعالى { كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون }[الأعراف ٣٢] .
الخامس : الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد بشرط عدم الإسراف .
قال تعالى{ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد }
[الأعراف ٣١ ، ٣٢].
السادس : الأمر بالأكل والشرب من الطيبات بشرط عدم الإسراف – كما فى الملبس .
قال تعالى{ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا }[الآية ١٨١] .
السابع : هداية الناس بالحق والعدل .
قال تعالى فى خيار قوم موسى ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون [الأعراف ١٥٩] .
وقال تعالى فى خيار أمة محمد وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون [الأعراف ١٨١] .
الثامن : حصر أنواع المحرمات الدينية العامة
قال تعالى{ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون }[الآية ٣٢] .
التاسع : بيان أصول الفضائل الأدبية والتشريعية الجامعة بأوجز عبارة معجزة.
قال تعالى{ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين }[آية ١٩٩] .

ثانياً : بيان عالمية رسالة النبى صلى الله عليه وسلم (١٢):
قال تعالى{ لتنذر به وذكرى للمؤمنين }[الآية ١]

ثالثاً : بيان آيات الله فى الخلق والتكوين(٧).
ومنها :
خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ... إلخ(١٣) .
خلق الله الرياح والمطر وإحياؤه الأرض به .. إلخ(١٤) .
خلق الله الناس من نفس واحدة ، وخلق زوجها منها ؟ ليسكن إليها ... إلخ(١٥).
خلق بنى آدم مستعدين لمعرفة الله ..(١٦)
تفضيل الله تعالى للإنسان على من فى الأرض جميعاً ..(١٧)
نزغ الشيطان للإنسان ، ومقاومته بالاستعاذة بالله(١٨) .
منة الله على البشر بتمكينهم فى الأرض .. الخ(١٩) .

رابعاً : بيان سنن الله تعالى فى الاجتماع البشرى(٧) .
ومنها :
إهلاك الله الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها .
قال تعالى{ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً وهم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين } [الأعراف ٤ ، ٥] .
للأمم آجال لا تتقدم ولا تتأخر عن أسبابها

قال تعالى ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون [الأعراف ٣٤] .

ابتلاء الله الأمم بالبأساء والضراء تارة ، وبضدها تارة أخرى ، فإما أن تعتبر : فيكون تربية لها ، وإما أن تغفل : فيكون مهلكة لها .

قال تعالى{ وما أرسلنا فى قرية من بنى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون }
[الآيات ٩٤ وما بعدها] .

الإيمان بما دعا الله إليه والتقوى فى العمل بشرعه فعلاً وتركا : سبب لسعة بركات السماء والأرض وخيراتها على الأمة .

قال تعالى{ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض } [الأعراف ٩٦] .

إرث الأرض للصالحين من عباد الله .

قال تعالى إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين [الأعراف ١٢٨] .

خامساً : بيان أن على الدعاة : حسن القيام بعملهم دون نظر أو انتظار لتحصيل ورؤية النتائج :

قال تعالى{ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون } [الأعراف ١٦٤] .

سادساً : بيان أن على الدعاة : التسامح فيما يصيبهم :

قال تعالى{ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين }[الأعراف ١٩٩].

- أنظر : القرطبى ..الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة الأعراف)

السخاوى ..جمال القراء ١ / ٣٦

الفيروزاباد ..بصائر ذوى التمييز ١ / ٢٠٣

٢- أنظر : واقرأ .. الآيتين ٤٦ ، ٤٨ من السورة .

٣- القرطبى ..الجامع لأحكام القرآن (تفسير الآية ٤٦) .

٤-الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ١ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

* أنظر : ترتيب السور الكريمة وتناسبها فى النزول وفى المصحف ..موسى جار الله (مخطوط ..بمكتبة الحرم المكى الشريف ، تحت رقم عام ٢١٠) .

٥- أنظر : مكى بن أبى طالب ..التبصرة ص ٢٠٢

السخاوى .. جمال القراء ١ / ٣٦

الفيروزابادى.. بصائر ١ / ٢٠٣

الآلوسى .. روح المعانى (تفسير الأعراف)

النيسابورى ..غرائب القرآن (تفسير الأعراف)

٦- أنظر : الزنجانى .. تاريخ القرآن ص ١١١ .

٧- رشيد رضا .. تفسير المنار (تفسير الأعراف) .

٨- مصطفى المراغى .. تفسير المراغى(سورة الأعراف) .

٩- سعيد جوى .. الأساس فى التفسير (تفسير الأعراف).

١٠- سيد قطب .. فى ظلال القرآن (تفسير الأعراف) .

١١- د/ محمد البهى..تفسير سورة الأعراف .

١٢- الآية ٢ ، ومفعول الإنذار محذوف للعموم ، أى فى تنذر العالمين من الثقلين.

١٣- الآية ٥٤ .

١٤- الآيتان ٥٧ ، ٥٨ .

١٥- الآية ١٨٩ .

١٦- الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ .

١٧- الآية ١١ .

١٨- الآيتان ٢٠٠ - ٢٠٢ .

١٩ - الآية ١٠ .

مفاتيح سورة الإسراء

أولاً:اسم السورة

لهذه السورة الكريمة عدة أسماء تسمى بها ، فهى تسمى بـــ :

١) سورة سبحان(١)

وذلك :

لأنها بدئت بتسبيح المولى عز وجل وتنزيهه عن كل نقص تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فى قوله (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً ٠٠٠٠٠) وختمت بذلك كذلك فى قوله (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ويخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) [الآيات ١٠٧-١٠٩] .

ولأنها كذلك أكثر سور القرآن الكريم احتواء "لهذه المادة الجليلة ، حيث ذكرت مادة التسبيح "فى القرآن كله ثنتان وتسعون مرة" اختصت هذه السورة بسبع مرات من هذا العدد ، فقد ذكرت فى الآية رقم ١ مرة واحدة ، وفى الآية رقم ٤٣ مرة واحدة ، وفى الآية رقم ٤٤ ثلاث مرات وفى الآية رقم ٩٣ مرة واحدة وفى الآية رقم ١٠٨ مرة واحدة ، بينما لم تحظ أى سورة من باقى سور القرآن الكريم يمثل هذا العدد ، حيث ذكرت :

٦ مرات فى : الأنبياء .

٤ مرات فى : سورتين النور والصافات .

٣ مرات فى سبع سور "البقرة ، يونس، طه، يس،الزمر، الطور ، الحشر.

٢ مرتان فى اثنتا عشرة سورة "آل عمران ، الأعراف ، النحل ، مريم ، الفرقان ، الروم ، غافر ، الزخرف ، ق ، الواقعة ، القلم ، النازعات .

(مرة واحدة فى ست وعشرين سورة ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، التوبة ، يوسف ، الرعد ، الحجر ، النحل ، المؤمنون ، القصص ، السجدة ، الأحزاب ، سبأ ، ص ، فصلت ، الشورى ، الفتح ، الحديد ، الصف ، الجمعة ، التغابن ، الحاقة ، المزمل ، الإنسان ، الأعلى ، النصر .

بالإضافة إلى أنها قد افتتحت بهذا الاسم "سبحان" لأن هذه السورة كما يذكر السيوطى نقلاً عن ابن الزملكانى ٠٠ اشتملت على الإسراء الذى كذب المشركون به النبى صلى الله عليه وسلم ، وتكذيبه تكذيب لله سبحانه وتعالى ، أتى "سبحان" لتنزيه الله تعالى عما نسب إلى نبيه من الكذب .

٢) سورة الإسراء

لأنها حظيت بشرف الحديث عن المعجزة الكبرى والآية العظمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهى اسراؤه من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى بيت المقدس بالشام فى قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) .

ويقول الإمام الزركشى : ولا شك أن الحرب تراعى فى الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون فى الشئ من خلق أو صفة تخصه ، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الراضى للمسمى ، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو وأشهر فيها ، على ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز .

٣) سورة بنى إسرائيل

لأنها تحدثت عنهم أحاديث طويلة ، ففى بداية السورة ، تحدثت عنهم فى سبع آيات (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ...) [الآيات ٢-٨] ، وفى نهاية السورة تحدثت عنهم فى أربع آيات (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم .....) [الآيات ١٠١-١٠٤] .
كما أنها انفردت فى حديثها عن بنى إسرائيل – دون باقى سور القرآن الكريم التى تعرضت آياتها للحديث عنهم – بذكر إفسادهم فى الأرض مرتين كما تخبرنا السورة فى قوله تعالى (وقفينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ...الخ) [الآيات ٤-٨] .
إلى غير ذلك من أحاديثها عنهم .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

آياتها : (١١١) مائة وإحدى عشرة آية .
كلماتها : (١٥٦٣) ألف وخمسمائة وثلاث وستون كلمة .
حروفها : (٦٤٦٠) ستة آلاف وأربعمائة وستون حرفاً .

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

أ- فى المصحف ..بعد : سورة "النحل" ، وقبل : سورة "الكهف" .
ب- فى النزول .. بعد : سورة "القصص" ، وقبل : سورة "يونس" .

رابعاً : سبب نزول السورة

يروى "أنه لما وصل النبى صلى الله عليه وسلم إلى المراتب العلية فى معراجه ..!!
أوحى الله تعالى إليه : يا محمد ..!! بم أشرفك ..؟
فقال : يا رب تنسبنى إلى نفسك بالعبودية .
فأنزل الله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ..)(٧)

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

هذه السورة مكية
إلا الآيات ٢٦ / ٣٢ ، ٣٣ / ٥٧ / ٧٣ – ٨٠ فمدنية .

ورد فى فضل هذه السورة : ما يشير إلى مكانتها وعظيم شأنها ، ويلفت الأنظار إلى وجوب الاهتمام والاعتناء بها .

من ذلك :

١- أن النبى صلى الله عليه وسلم – كما أخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وغيرهم عن عائشة – كان يقرؤها والزمر كل ليلة .

٢- وأخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود أنه قال : هذه السورة ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تلاوى .

٣- وفى الخبر : أنها ختمت بآية العز .

وهى قوله تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً) [الآية ١١١] .

وفى الاتقان للإمام السيوطى : فى مسند أحمد من حديث معاذ مرفوعاً .. آية العز (الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ..) الآية

أن هذه السورة الكريمة بداية عدة سور من القرآن الكريم تحوى كل سورة منها واحدة من عجائب قدرة الله تعالى الدالة على بديع صنعه ، وعظيم حكمته ، وآيات وحدانيته .

وهذه العجائب :

١) فى سورة الإسراء : حادثة الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهى مذكورة فى قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)[الآية ١] .

٢) فى سورة الكهف : حادثة أهل الكهف ونومهم فى الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً .

وهى مذكورة فى قوله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهئ لنا من أمرنا رشداً فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً * ثم بعثناهم ..) [الآيات ١-٢٦] .

٣) فى سورة مريم : حادثة حمل السيدة مريم ابنة عمران بسيدنا عيسى من غير أن يمسسها بشر .

وهى مذكورة فى قوله تعالى (واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * واتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحاً فتمثل لها بشراً سوياً ...) [الآيات ١٦-٤٠] .

٤) فى سورة طه : تحول عصا موسى عليه السلام إلى حية تسعى ، ألقاها موسى فى وجه السحرة ، فإذا هى تلقف ما يأفكون .

وهى مذكورة فى قوله تعالى (وما تلك بيمينك يا موسى * قال هى عصانى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هى حية تسعى ..) [الآيات ١٧-٢١ / ٦٥-٧٠] ؟

٥) فى سورة الأنبياء : حادثة إلقاء أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام فى النار ، ثم تحولها إلى برد وسلام عليه .

وهى مذكورة فى قوله تعالى (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) [الآيات ٦٨-٧٠] .

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

إن التناسب بين سورة الإسراء والنحل والتى قبلها شديد الوضوح .
وسنذكر من ذلك النقاط التالية .
١) إذا كان تعالى قد ختم سورة النحل : بأمره النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر على إيذائهم ومكرهم ، وكذلك ينهيه عليه الصلاة والسلام عن الحزن وضيق الصدر سبب ذلك ..!
فى قوله تعالى (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) [الآيتان ١٢٧ ، ١٢٨] .
فإنه تعالى بدأ سورة الإسراء ببيان شرفه وعلو منزلته عند ربه ، وعنايته به ، وتكريمه له .
فى قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من السجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) [الآية ١] .
٢) إذا كان تعالى فى سورة النحل قد تحدث عن اليهود إجمالاً وأشار إليهم سريعاً .
فى قوله تعالى (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) [الآية ١١٨] .
وفى قوله تعالى (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) [الآية ١٢٤] .
فإنه تعالى فى الإسراء قد تحدث عنهم بتفصيل وتوضيح واضح هادئ .
إذ بين شريعة أهل السبت التى شرعها الله تعالى لهم فى التوراة ، فى الآيات من ٢٣ إلى ٣٧ .
وهى قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ..) [الآيات ٢٣-٣٧] .
فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال :
"إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل .
كما ذكر تعالى فى السورة : عصيان اليهود ، وإفسادهم وتخريب مسجدهم.
فى قوله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً) [الآيات ٤-٨] .
كما ذكر تعالى فى السورة : استفزازهم النبى صلى الله عليه وسلم وإرادتهم إخراجه من المدينة .
فى قوله تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً) [الآية ٧٦] .
كما ذكر تعالى فيها : سؤالهم إياه عن الروح .
فى قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) [الآية ٨٥] .
كما ختم تعالى السورة : بذكر آيات موسى عليه السلام التسع ، وخطابه مع فرعون الذى أراد أن يستفزهم من الأرض فأهلكهم الله وورث بنى إسرائيل من بعده .
فى قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحوراً * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون

مبثوراً * فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً * وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) [الآيات ١,١-١٠٤] .

وفى هذه الآيات : تعريض بكفار مكة أنهم سيئاتهم ما نال فرعون ، حيث أرادوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ما أراد هو بموسى عليه السلام وأصحابه .

بل : ورد أن آخران فى سورة الإسراء هو آخر آية فى التوراة .

٣) إذا كان تعالى قد بين فى النحل مكانة القرآن ومنزلته .

فى قوله تعالى (.. وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إلهيم ولعلهم يتفكرون) [الآية ٤٤] .

وفى قوله تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) [الآية ١٠٢] .

فإنه تعالى قد بين فى الإسراء عموم هداية هذا القرآن الكريم فى كل الأزمان والبينات ولكل الأفراد والجماعات .

فى قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً * وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً) [الآيتان ٩ ، ١٠] .

٤) إذا كان تعالى قد بين فى النحل إن فى عسل النحل شفاء الناس من أمراضهم الجسدية .

فى قوله تعالى (.. يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) [الآية ٩٦] .

فقد بين تعالى فى الإسراء أن فى القرآن الكريم شفاء الناس من أمراضهم النفسية والجسدية كذلك .

فى قوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) [الآية ٨٢] .

٥) إذا كن سبحانه قد أمر فى النحل بإيتاء ذى القربى .

وذلك فى قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ..) [الآية ٩.] .

فإنه تعالى أمر بذلك فى الإسراء مع الزيادة .

كما فى قوله تعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً) [الآية ٢٦] .

وذلك – كما يقول العلماء – بعد أن أمر جل وعلا بالإحسان بالوالدين الذين هما منشأ القرابى .

ثامناً : هدف السورة

لا تختلف هذه السورة فى أهدافها عن باقى فى السور المكية ، بيد أنها تركز على بعض الأهداف فتبرزها إبرازاً خاصاً(١) .

من ذلك :

١) أنها تعالج العقيدة الإسلامية فى شتى مظاهرها معالجة من يناقش ويقيم الحجة ، ثم يحذر ويأمر .

فهى تتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفى قوله تعالى – مثلاً – (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً) [الآية ٧٣] .

وفى هذا الإطار : نتحدث عن آيات الرسالة التى طلبوها عناداً .

فى قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لنا حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً..) [الآيات ٩.-٩٦].

وتتحدث عن القرآن .
أنظر : الآيات أرقام ٩، ٤٥، ٤٦، ٨٢ على سبيل المثال من نفس السورة.
ونتحدث عن تنزيه الله تعالى عما يقوله المشركون .
فى قوله تعالى (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلاً * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً * تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده * ولكن لا يفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) [الآيات ٤٢-٤٤] .
وفى قوله تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكاً فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً) [الآية ١١١] .
٢) أنها تبين النعمة الإلهية المعنوية .. التى هى القرآن المسطور .
وكذلك النعمة الإلهية المادية .. التى هى فى الكون المنظور .
وذلك فى قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ..) [الآيتان ٩ ، ١٠] .
وفى قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلاً) [الآية ١٢] .
ثم تعقب على هذه النعم بذكر ما تستوحيه من حسن الإيمان بصاحبها وما يترتب على عدم ذلك .
فى قوله تعالى (وكل إناسن ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ..) [الآيات ١٣-١٥] .
٣) أنها تضع الإنسان على الطريق المستقيم .
إذ تبين له قواعد سلوكه التى ينبغى أن يتحلى بها .
فى مثل قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) [الآية ٢٩] .
وفى مثل قوله تعالى (ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) [الآية ٣٧] .
كما تبين له أسس المجتمع الإسلامى السليم الذى يجب أن يعمل على خلقه وإيجاد لكى يعيش فى رحابه .
فى مثل (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) [الآية ١٦] .
وفى مثل قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً..) [الآية ٢٣] .
ولذا : فهى تشق الطريق بشدة لعملية الدخول فى الإسلام كله واجتناب خطوات الشيطان .
فى مثل قوله تعالى (لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً) [الآية ٢٢] .
وفى مثل قوله تعالى (ولا تبذر تبذيراً * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً) [الآيتان ٢٦ ، ٢٧] .
كما تذكر الإنسان بكل لوازم الدخول فى الإسلام كله ، والاستمرار عليه جميعه ، وعلى مستوى الأمة وعلى مستوى الفرد كذلك .
فى مثل قوله تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً) [الآيات ١٨-٢٠] .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

هذه السورة تتكون مقدمة وخمسة أقسام

المقدمة : عبارة عن (٣) آيات

من الآية الأولى حتى نهاية الآية (٣) .

وفيها : الإشارة إلى ما من الله على محمد صلى الله عليه وسلم بالإسراء ، وما من به على موسى عليه السلام فى التوراة ، والإشارة كذلك إلى مقام الشكر ، وسنة الله فيمن لم يشكر .

والقسم الأول : عبارة عن (٣٧) آية .

من الآية (٤) حتى نهاية الآية (٤٠) .

وفيه : يقص الله علينا ما عاقب به بنى إسرائيل لانحرافهم ، ويدين خاصية من خواص القرآن ، ثم يأمر عباده وينهاهم .

وفى كل ذلك : تعميق لشكر النعمة بالطاعة ، والتخويف من الإنحراف ، والحث على الاهتداء بالقرآن ، والالتزام بآدابه .

والقسم الثانى : عبارة عن (٢٩) آية

من الآية (٤١) حتى نهاية الآية (٦٩) .

وفيه : علاج المواقع التى تمنع من الهداية ، وإقامة الحجة على الكافرين ، وتهديدهم والرد على مواقفهم .

والقسم الثالث : عبارة عن (١٩) آية

من الآية (٧٠) حتى نهاية الآية (٨٨) .

وفيه : التذكير بالنعمة ، وبيان عقوبة كفرانها ، والتذبذب على ما يحاوله الكافرين مع الداعية ليتخلى عن الإسلام ، أو شئ منه ، مع بيان العقوبة التى يستحقها من تنازل عن شئ من ذلك ، والإعلام بكيد الكافرين لصاحب الدعوة ، والتعليم بكيفية مقابلة صاحب الدعوة للكيد والإغراء .

وفى كل ذلك : تربية على شكر النعمة ، وعلى الإلتزام بكل الإسلام .

والقسم الرابع : عبارة عن (١٢) آية

من الآية (٨٩) حتى نهاية الآية (١٠٠) .

وفيه : الحديث عن مواقف الكافرين وطلباتهم ، وتعنتهم ، ومقابلتهم للنعمة بالكفران ، وجزائهم على ذلك .

والقسم الخامس : عبارة عن (١١) آية

من الآية (١٠١) حتى نهاية الآية (١١١) وهى خاتمة آيات السورة .

وفيه : الحديث عن موسى عليه السلام ، وعن القرآن الكريم .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

تضم السورة فى ثناياها موضوعات شتى معظمها عن العقيدة ، وبعضها عن قواعد السلوك الفردى والجماعى وآدابه القائمة على العقيدة ، إلى شئ من القصص عن بنى إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذى كان إليه الإسراء ، وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان .

ولكن العنصر البارز بين هذه الموضوعات هو شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف القوم منه فى مكة ، ثم القرآن الذى جاء به ، وطبيعة هذا القرآن وما يهدى إليه ، واستقبال القيم له .

وتستطرد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسول ، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها ، وإلى تقرير التبعية الفردية فى الهدى والضلال الاعتقادى ، والتبعة الجماعلية فى السلوك العملى فى محيط المجتمع .

كل ذلك بعد أن يعذر الله سبحانه وتعالى إلى الناس ، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل (وكل شئ فصلناه تفصيلاً) [الآية ١٢] ، ويتكرر فى سياق السورة تنزيه الله تعالى وتسبيحه وحمده وشكرانه ففى مطلعها (سبحان الذى أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى ...) وفى أمر بنى إسرائيل بتوحيد الله بذكرهم بأنهم من ذرية نوح (إنه كان عبداً شكوراً) [الآية ٣٠] .

وعند ذكر دعاوى المشركين عن الآلهة يعقب بقلوه (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) [الآيات ٤٣ ، ٤٤] .

وفى حكاية بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن (ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) [الآية ١٠٨] .

وتختم السورة بآية العز (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً) [الآية ١١١] .

ومن كان هنا – كما قدمناه – أحد أسماء هذه السورة "سبحان" .

ومجمل ما حوته السورة من الأغراض

١) الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .
٢) تاريخ بنى إسرائيل فى حالى الارتقاء والانحطاط .
٣) حكم وعظات للأمة الإسلامية يجب أن تراعيها حتى لا تذهب دولها كما ذهبت دولة بنى إسرائيل .
٤) بيان أن كل ما فى السموات والأرض مسبّح لله .
٥) الكلام فى البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .
٦) الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .
٧) الحكمة فى عدم إنزال الآيات التى اقترحوها على محمد صلى الله عليه وسلم .
٨) قصص سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس من ذلك .
٩) تعداد بعض نعم الله على عباده .
١٠) طلب المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوافقهم فى بعض معتقداتهم وإلحاقهم فى ذلك .
١١) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة والتهجد فى الليل .

١٢) قصص موسى مع فرعون .
١٣) قصص موسى مع فرعون .
١٤) الحكمة فى إنزال القرآن منجماً .
١٥) تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

١)أن السورة تحمل فى ثنايا آياتها مبشرات النصر على اليهود .
اقرأ النصوص التالية تصل إلى ما نقصده بعون الله .
(ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نقيراً) [الآية ٦.] .
واليهود الآن لديهم أموال العالم وهو أعلى صوتاً وأكثر إعلاماً ونقيراً وضجيجاً .
(فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) [الآية ١,٤] .
وإذا كان من اللفيف : ما اجتمع من الناس من قبائل شتى .. !!
وإذا كان معنى الآية كما يقول ابن عباس : جئنا بكم جميعاً من جهات شتى ..!
وإذا كانت هجرة اليهود إلى أرض فلسطين آخذة فى الازدياد ...!!
فاقرأ الآية التالية :
(فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً) [الآية ٧] .
ولكن من هؤلاء الناس سوف يدخلون المسجد .. الخ
اقرأ قوله تعالى لتعرف صفتهم :
(بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ..) [الآية ٥]
وما على المسلمين اليوم إلا اكتساب هاتين الصفتين ليكتب الله لهم النصر فى حرب العقيدة إلا اكتساب هاتين الصفتين ليكتب الله لهم النصر فى حرب العقيدة بينهم وبين اليهود .
والصفتان هما :
العبودية لله .
إحراز القوة المادية .
(إنا لننصر ربنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) [....]
٢) فى قوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) .
يقرر السورة التبعة الفردية التى تربط كل إنسان نفسه ، إن اهتدى فلها ، وإن ضل فعليها ، وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد، إنما يسأل كل عن عمله ، ويجزى كل بعمله ، ولا يسأل حميم حميماً .
٣) أن عدم الضرب على أيدى المفسدين والفاسقين والظلمة : يكون سبباً فى هلاك عام للجميع .
يقول تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) [الآية ١٦] .

والمترفون فى كل أمة : هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الحزم ويجدون الراحة ، فينعمون بالدعة والراحة بالسيادة ، حتى تترهل نفوسهم وتأسن ،وترتع فى الفسق والمجانة ، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات وتلغ فى الأعراض والحرمات .
وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم : عاثوا فى الأرض فساداً ، ونشروا الفاحشة فى الأمة وأشاعوا . وارخصوا القيم العليا أى لا يعيش الشعوب إلا بها ولها .
ومن ثم : تتخلل الأمة وتسترحى ، وتقعد حيويتها ، وعناصر قوتها ، وأسباب بقائها ، فتهلك وتطوى صفحتها .
٤) فى قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ...) [الآية ١٦] .
تقرير التبعة الجماعية : إذ الجماعة مسئولة عن ترك النظم الفاسدة ، وعدم الضرب على أيدى المترفين فيها كى لا يفسقوا فيها ، فيحق عليها القول فيدمرها تدميراً .
وذلك قريب من قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) [الأنفال ٢٥] .
(إن الله تعالى عندما ينزل وحياً على أمة ، ويختارها لحمل رسالة ..! فهذه نعمة يستوجب كفرها عقابه .
وقد أنزل وحياً على بنى إسرائيل ، فكفروا به ، فاستحقوا عقابه ..!
وقد أنزل على هذه الأمة هذا الإسلام ..!
فعليهم أن يتعظوا ببنى إسرائيل من تسليط غيرهم عليهم عندما ابتعدوا عن دينه .
٦) فى قوله تعالى (لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد ملوماً مخذولاً) [الآية ٢٢] .
روى الإمام أحمد والترمذى بسند حسن صحيح غريب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
ومن أصابته فاقه فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له الغنى : إما أجلا وإما عاجلاً".
٧) فى قوله تعالى (يوم تدعو كل أناس بإمامهم) عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
"يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويُمد له فى جسمه ، وينبض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه ، فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهم آتنا بهذا ، وبارك لنا فى هذا ، فيأتيهم ، فيقول لهم : أبشروا فإن لكل رجل منك مثل هذا .
وأما الكافر : فيسود وجهه ، ويمد له فى جمسه ويراه أصحابه ، فيقولون : نعوذ بالله من هذا ، أو من شر هذا ، اللهم لا تأتنا به ، فيأتيهم ، فيقولون : اللهم أخرّه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا" .

١- أنظر : السخاوى .. جمال القراء ٣٧/١
الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٢٨/١
البقاعى .. نظم الدرر (سورة رقم ١٧)
السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧)
الآلوس .. روح المعانى (س رقم ١٧)
٢- محمد فؤاد عبد الباقى.. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن
٣- السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧)
٤- أنظر : السخاوى ، البقاعى ، السيوطى ، الآلوس (مصادر سابقة)
٥- الزركشى البرهان ١٢٧٠/١
٦- أنظر : مكى بن أبى طالب ..التبصرة ص ٢٤٣
الفيروزابادى .. بصائر ٢٨٨/١
السخاوى .. جمال القراء ٢٠٦/١
الآلوس .. روح المعانى (س : ١٧)
نثر المرجان ٢/٤
النيسابورى .. غرائب القرآن (س ١٧)
٧- أنظر : الآلوس .. روح المعانى (س : ١٧)
الآلوس .. روح المعانى (س : ١٧)
٨- أنظر : الآلوس .. روح المعانى (")
المراغى .. تفسير المراغى (")
٩- القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (")
١٠- السيوطى .. الاتقان ١٦٣/١
١١- أنظر : د.محمد البهى تفسير سورة الإسراء ص ٤٢٣
د. محمد حجازى التفسير الواضح (سورة ١٧)
سعيد جوى الأساس (سورة ١٧)
١٢- سعيد جوى الأساس فى التفسير (")
١٣- سيد قطب فى ظلال القرآن (")
١٤- المراغى تفسير المراغى ١١٢/١٥

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة الكهف

أولاً:اسم السورة

لهذه السورة عدة أسماء

فهى تسمى :

١- سورة الكهف(١)

وذلك : لاشتمالها على هذه المعجزة الربانية العجيبة ، وهى قصة أصحاب الكهف – بتفاصيلها(٢) .

٢- سورة أصحاب الكهف .

وذلك لاشتمالها على قصتهم الجامعة فوائد الإيمان بالله ٠٠ من الأمن الكلى عن الأعداء ، والإغناء الكلى عن الأشياء ، والكرامات العجيبة(٢) .

ويذكر الإمام السيوطى – لهذه السورة – إسماً ثالثاً ، وهو :

٣- الحائلة(٣)

وذلك : لأنها تحول بين قارئها وبين النار(٥) .

فقد روى البيهقى من حديث ابن عباس مرفوعاً : "أنها تدعى فى "التوراة" ... الحائلة ... وقال : إنه منكر(٣) .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

آياتها : (١١٠) مائة وعشر آيات .

كلماتها : (١٥٧٩) ألف وخمسمائة وتسع وسبعون كلمة .

حروفها : (٦٣٠٦) ستة آلاف وثلاثمائة وستة حروف(٦) .

ثالثا : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

١- فى المصحف .. بعد : سورة "الإسراء" ، وقبل : سورة "مريم" .

٢- فى النزول – بعد : سورة "الغاشية" ، وقبل : سورة "النحل" .

رابعاً : سبب نزول السورة

روى أبو جعفر الطبرى : عن ابن عباس أنه قال :

بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن ابى معيط إلى أحبار يهود المدينة .

فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا حتى قدما المدينة .

فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله

وقالا : أنهم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

قال : فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث تأمرهم بهن ، فإن أخبركم بهن : فهو بنى مرسل ، وإن لم يفعل . فالرجل منقول ، فروا فيه رأيكم .

سلوه : عن فتيبة ذهبوا فى ... الأول ، ما كان أمرهم ؟

فإنه قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه : عن رجل طواف ، بلغ مشارق الأرض ومغاربها . ما كان نبؤه؟

وسلوه : عن الروح ، ما هو ؟

فإن أخبركم بذلك : فإنه نبى فاتبعوه .

وإن هو لم يخبركم : فهو رجل متقول ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش .

فقالا : يا معشر قريش .. !!

قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ، فأخبروهم بها ،

فجاؤوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم

فقالوا : يا محمد أخبرنا ، وسألوه عما أمروهم به .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبركم غداً بما سألتم عنه ، ولم يستنق .

فانصرفوا عنه .

فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله إليه فى ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام .

حتى أرجف أهل مكة .

وقالوا : وعدما محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشئ مما سألناه عنه .

وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحى عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .

ثم جاء جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل ، بسورة "أصحاب الكهف" .

فيها: معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من : أمر القتيبة عن الرجل الطواف ، وخول الله عز وجل {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً} [الإسراء ٨٥] .

قال ابن اسحق : فبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح السورة فقال {الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ..} .

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

السورة : مكية كلها فى المشهور .

واختار ذلك : جمع من العلماء(٩) .

سادساً : فضل السورة

ورد فى فضل هذه السورة ما يضيق المكان هنا عن حصره وإحصائه(١٠).

ومع ذلك نشير إلى بعض ذلك .

فقد أخرج البخارى فى صحيحه عن البراء أنه قال "كان رجل يقرأ سورة الكهف ، وإلى جانبه حصان مربوط فتغشته سحابة ، فجعلت تدور وتدنو ، وجعل فرسه ينضر ، فلما أصبح : أتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : تلك السكينة تنزلت بالقرآن(١١)" .

وفى رواية الترمذى "نزلت مع القرآن" .

كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الدرداء : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ، عصم من الدجال) .

كما روى الترمذى فى سننه عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال (من قرأن ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال) .

وقال : هذا حديث حسن صحيح(١٢)

وفى سنن الدرامى : عن أبى سعيد الخدرى ، قال : من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة : أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق(٣) .

وروى الإمام القرطبى فى تفسيره عن سمرة بن جندب أنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم (من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظا لم تضره فتنة الدجال) ٠٠ (ومن قرأت السورة كلها : دخل الجنة) .

وروى الإمام ابن كثير فى تفسيره : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من قرأ سورة الكهف كما نزلت : كانت له نوراً يوم القيامة).

ونقل الإمام السيوطى فى كتابه الاتقان عن ابن الضريس فى فضائله : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ألا أخبركم بسورة ملء عظمتها ما بين السماء والأرض ، شيعها سبعون ألف ملك؟ سورة الكهف)(١٧) .

ويرد هنا سؤال هام ٠٠

ما ألسر فى أن هذه السورة أو بعضاً منها : يعصم من الدخال وفتنته ٠٠؟

يقول الإمام أبو الحسن الندوى فى كتابه "تأملات فى سورة الكهف" .

ذلك لأن هذه السورة :

"هى السورة الفريدة ، التى تحتوى على أكبر مادة وأغزرها فيما يتصل بفتن العهد الأخير ، التى يتزعمها الدجال ، ويتولى كبرها ، ويحمل رايتها .

والتى تحتوى – كذلك – على أكبر مقدار من الترياق الذى يدفع سموم الدجال ، ويبرئ منها .

كما أن : من يتشرب معانى هذه السورة ، ويمتلئ بها – وهو نتيجة لحفظ والإكثار من القراءة فى عامة الأحوال – يعتصم من هذه الفتنة المقيمة المقعدة للعالم ، ويفلت من الوقوع فى شباكها .

وفى هذه السورة كذلك : من التوجيهات والإرشادات ، والأمثال ، والحكايات ، ما يبين الدجال ويشخصه فى كل زمان ومكان ، وما يوضح الأساس الذى تقوم عليه فتنته ودعوته ، ومن ثم : فهى تهيئ العقول والنفوس لمحاربة هذه الفتنة ومقاومتها ، والتمرد عليها .

كما أن فيها كذلك : روحاً تعارض التدجيل وزعماءه ، ومنهج تفكيرهم ، وخطة حياتهم فى وضوح وقوة .

وعن البراء بن عازب قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف ، وإلى جانبه حصان مربوط فتغشته سحابة ، فجعلت تدنو وتدنو ، وجعل فرسه ينقر ، فلما أصبح أتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : (تلك السكينة تنزلت بالقرآن) .

أ- صلة هذه السورة بسورة الإسراء قبلها شديدة الوضوح ، واضحة الشدة ، بما يظهر فى النقاط التالية(١٩) :

١) إذا كانت سورة الإسراء قد افتتحت بالتسبيح {سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً ..} ..!!

فإن سورة الكهف : قد افتتحت بالتحميد {الحمد لله الذى أنزل إلى عبده الكتاب}

وفى ذلك غاية المناسبة بين فاتحتيهما .

إذ التسبيح والتحميد : مقترنان فى سائر الكلام نحو {سبح بحمد ربك} [الطور ٤٨] .

٢) إذا كانت الإسراء قد اختتمت بالحمد فى قوله تعالى {وقل الحمد الذى لم يتخذ ولداً ..} الآية .. !!

فإن سورة الكهف قد افتتحت بالحمد كذلك فى قوله تعالى {الحمد الذى أنزل على عبده الكتاب ..}.

وفى ذلك غاية المناسبة بين خاتمة الأولى وفاتحة الثانية .

٣) من المعلوم أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبى صلى الله عليه وسلم ، عن أشياء ثلاثة : الروح ، قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين .

وقد أجاب تعالى عن السؤال الأول : فى سورة الإسراء .

فناسب أن تكون الإجابة عن باقى الأسئلة فى السورة التالية .

وفى ذلك ما يؤكد قوة المناسبة بينهما .

وينبغى أن يلاحظ :

أ- أنه لم تجمع أجوبة الأسئلة الثلاثة فى سورة واحدة لأنه لم يقع الجواب عن الأول بالبيان ، مثل الباقين ، فناسب أن يذكر وحده فى سورة .

ب- كانت الإجابة عن سؤال الروح فى سورة الإسراء :

لما بين الروح والإسراء من المشاركة بأن كلاً منهما مما لا يكاد تصل إلى حقيقته العقول .

وقيل : كان ذلك لما أن الإسراء متضمن العروج إلى المحل الأرفع ، والروح متصفة بالهبوط من ذلك المحل .

٤) إذا كان تعالى قد قال فى سورة الإسراء

{وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً} والخطاب فيها – كما هو معلوم – لليهود ..!! .

فقد أقام الدليل على ذلك فى سورة الكهف

وذلك بقصة موسى نبى بنى إسرائيل مع الخضر عليهما السلام ، التى كان سببها ذكر العلم والأعلم {فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً} [الآيتان ٦٥ ، ٦٦] .

وما دلت عليه هذه القصة : من كثرة المعلومات الله التى لا تحصى .

٥) إذا كان تعالى قد قال فى آخر الإسراء {فإذا جاء وعد الآخرة ، جئنا بكم لفيفاً} [الإسراء ١٠٤] .

فقد شرح ذلك فى الكهف .

بقوله تعالى {فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً * وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً * وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً}(٣) [الكهف ٩٨-١٠١] .

ب- صلتها ببعض سور القرآن الكريم الأقوى
وإذا كنا قد تحدثنا عن هذه النقطة من قبل عند حديثنا عن مفاتح سورة الأنعام ..!!
فلا تجد مانعاً من إعادة ما سبق أن ذكرناه هناك من باب التذكير والتأكيد.
أ) قال صاحب تفسير المنار :
لما كانت نعمة سحبانه مما تفوت الحصر ، ولا يحيط بها نطاق العد ..!!
إلا أنهها ترجع إجمالاً إلى :
إيجاد وإبقاء فى النشأة الأولى
وكذلك : إيجاد وإبقاء فى النشأة الآخرة .
وقد أشير فى :
فاتحة الكتاب إلى الجميع .. !!
وفى الأنعام إلى الإيجاد الأول .. !!
وفى سبأ إلى الإيجاد الثانى .. !!
وفى فاطر إلى الإبقاء الثانى ...!!
لما كان الأمر كذلك .. !!
ابتدئت هذه السور بـــ(الحمد لله)
وهى كلها : سور مكية .. كل منها مشتمل على :
دعوة الإسلام ، ومحاجة المشركين .
ب) وكذلك : فإن هذه السور الخمس التى بدئت بـــ(الحمد لله) دون باقى سور القرآن الكريم ..
قد أشارت فى فواتحها إلى أصول عقيدة هذا الدين .
وفى فاتحة التكاب : إشارة إلى الإيمان بالقضاء والقدر ، بمقتضى مفهوم الربوبية ، وما تستلزمه من التسليم والإذعان المطلق لرب العالمين.
وفى فاتحة الأنعام : إشارة إلى الإيمان بالله تعالى الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، مع النعمة على الذين كفروا به وعدلوا عنه .
وفى فاتحة الكتاب : إشارة إلى الإيمان بالكتاب المنزل ، وبالرسول الذى أنزل عليه هذا الكتاب .
وفى فاتحة سبأ : إشارة إلى الإيمان باليوم الآخر الذى له تعالى فيه الحمد أيضاً .
وفى فاتحة فاطر : إشارة إلى الإيمان بالملائكة الذين جعلهم الله رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع .
وفى هذا ما فيه من الإشارة إلى أن هذا الذين بتمامه ، وهذه العقيدة بأصولها ، وهذا بالإيمان بأركانه : لنعمة كبرى ، ومنه عظمى تستحق منا أن نحمد الله تعالى – دائماً – عليها .

ثامناً : هدف السورة

تهدف السورة بشكل واضح ومركز وقوى إلى أربعة أهداف ، على النحو التالى :
١) تصحيح العقيدة
وهى تقرر ذلك : فى بدايتها ، وخاتمتها ، ومواضع عديدة فى سياقها .

ففى البدء {الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم . لا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً} [الكهف ١-٥] .

وفى الختام {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه وليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً} [الكهف ١١] .

وهكذا بتوائم البدء والختام فى : إعلان الوحدانية ، وإنكار الشرك ، وإثبات الوحى ٠٠ إلخ .

وفى السياق – على سبيل المثال – يقول الرجل المؤمن – فى قصة ٠٠٠ – بصاحبه : وهو يحاوره {أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً} [الكهف ٣٧ ، ٣٨] .

٢) تصحيح منهج الفكر والنظر .

ويتخلى ذلك بوضوح فى :

أ) استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم ، والذين لا يأتون على ما يقولون برهان .

ففى مطلع بسورة {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً} [الكهف ٤ ، ٥] .

والفتية أصحاب الكهف يقولون {هؤلاء قومنا اتخذوا من دون الله آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان مبين} [الكهف ١٥] .

ب) توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه ، وما لا علم له به : فليدع أمره إلى الله .

فالفتية أصحاب الكهف حينما يتساءلون عن فترة لبثهم فى الكهف : يكلون علمها لله {قالوا ربكم أعلم لما لبثتم} [الكهف ١٩] .

وفى قصة موسى مع العبد الصالح ، عندما يكشف له عن سر تصرفاته التى أنكرها عليه موسى ، يقول {رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى} [الكهف ٨٢] ، فيكل الأمر فيها لله .

٣) تصحيح القيم والمفاهيم بميزان العقيدة .

حيث ترد السورة القيم الحقيقة إلى :

الإيمان والعمل الصالح .

وفى الوقت نفسه : تصغر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية ، التى تبهر الأنظار .

ويظهر ذلك بوضوح فى مواضع عديدة من السورة ، وتختار النماذج التالية فقط للاختصار .

أ) مفهوم الزينة .

تبين السورة : أن كل ما على الأرض من زينة إنما جعل للابتلاء والاختيار ، ونهايته إلى فناء وزوال {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً} [الكهف ٧ ، ٨] .

ولذلك : طالب الرسول أن يصبر مع أهل الإيمان ، غير مبال بزينة الحياة الدنيا وأهلها الغافلين عن الله {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} [الكهف ٢٨ ، ٢٩] .

وتصور : كيف يعتز المؤمن بإيمانه فى وجه المال والجاه والزينة ٠٠؟

وكيف يجبه صاحبها – المنتفش المنتفخ – بالحق ، ويؤنبه على نسيان الله .
وذلك فى قصة الجنتين {قال له صاحبه وهو يحاوره} .
أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؟..
لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً .
ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله !!
إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربى أن يؤتينى خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا} [الكهف ٣٧-٤١] .
وتضرب السورة : المثل للحياة الدنيا – محل الزينة – وسرعة زوالها بعد ازدهارها (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدراً} [الكهف ٤٥] .
ثم تعقب ببيان : للقيم الزائلة والقيم الباقية ، بعد كل هذا التصحيح ، قائلة :
{المال والبنون زينة الحياة تالدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً} [الكهف ٤٦] .
ب) مفهوم السعة والضيق .
تبين السورة : أن حمى الله أوسع وأرحب ولو آوى الإنسان إلى كهف خشن ضيق .
فالفتية المؤمنون ، أصحاب الكهف ، يقولون لقومهم ، بعد اعتزالهم {واذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً} [الكهف ١٦] .
جـ) مفهوم المكسب والخسارة .
تقرر السورة : أن آخر الخلق أعمالاً ، هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه .
وتبين أن هؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة لأعمالهم وإن حسبوا أنهم يحسنون بها صنعاً .
{قل هل ننبؤكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً} [الكهف ١٠٣-١٠٥] .
٤) بيان تأييد الله تعالى للمؤمنين بما تذكره من قصص .
والقصص التى تعرضها هذه السورة لتحقيق هذا الهدف ثلاث :
قصة أهل الكهف "من آية ٩ إلى ٢٦"
قصة موسى مع الخضر "من آية ٦٠ إلى ٨٢"
قصة ذى القرنين "من ٨٣ إلى ٩٧"
ويجب أن يلاحظ إبتداءً :
أن هذه السورة تختلف عن غيرها من السور المكية فى عرضها لقصص القرآن للاستشهاد به .
فبينما السور الأخرى تسوق من التارخي الأدلة على عقاب الله للمعارضين.
وهى أدلة تحكى الكوارث الطبيعية التى تنزل بهم _ بسبب كفرهم وتحديهم للرسول الذى أرسل إليهم – من زلازل ، أو صواعق ، أو فيضانات ، أو جفاف ، وجدب .
إذاً بسورة الكهف : تسوق من التاريخ الأدلة على تأييده للمؤمنين : بالرسالة الإلهية ، ووقايتهم من الأذى ، وفضلهم عليه فى العلم ، أو فى القوة فى سبيل الإصلاح ودفع الظلم والفساد .
ولذا ..

نجد قصة أهل الكهف : تصور هذا التأييد من الله تعالى لمجموعة من الشبان المؤمنين ، بحمايتهم من بطش الحاكم الظالم ، بعد أن وقفوا فى مواجهة حكمه معلنين ومؤكدين وحدة الألوهية ، رغم أن الوثنية تشد هذا الحاكم إليها ، كما يؤمن بها الكثير من قومه .

كما نجد أن قصة موسى مع الخضر : تبرز فضل الله على المؤمنين .

وهو فضل يختلف من مؤمن إلى مؤمن ، والناس فيه من أجل ذلك متفاوتون .

فموسى – عليه السلام – وإن كان صاحب رسالة لكن على بمشاكل الحياة : كانت فى حاجة إلى ما حبا به الله الخضر من علم وقدرة على حل هذه المشاكل.

وقد أوردت السور جملة من هذه المشاكل .

ظاهر التصرف منه يثير فى العادة اعتراضاً عليه ، ولكن حقيقته تبنئ عن حكمة ، لأنها تنطوى على مصلحة ضرورية بمؤمنين هم فى حاجة إليها .

كما نجد – ثالثاً – أن قصة ذى القرنين : تعلن تأييد الله تعالى لملك مؤمن ، ونصره على الظلم والفساد ، وتمكينه من وقاية الضعفاء فى ملكه .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

وهذه السورة تتكون من : مقدمة ، وستة أقسام

فالمقدمة : عبارة عن (٨) آيات

من الآية الأولى حتى نهاية الآية (٨) .

وفيها : البدء بالحمد ، ووصف القرآن ، وعليه إنزاله ، ،الحنو الإلهى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحكمة فى تزيين الحياة الدنيا ، ومآلها .

والقسم الأول : عبارة عن (٢٣) آية .

من الآية (٩) من نهاية الآية (٣١) .

وفيه : قصة أصحاب الكهف وما فيها من إعجاز وتدليل على قدرة به تعالى ، مع بيان الكثير من دروسها التربوية والدعوية .

القسم الثانى : عبارة عن (١٨) آية

من (٣٢) حتى نهاية الآية (٤٩) .

وفيه : مثل رجلين ٠٠ أحدهما : غوته زينة الحياة الدنيا ، فرسب وعوقب ، والثانى : زهد فى الحياة الدنيا ؛ ٠٠٠ ونصر .

وفيه كذلك : مثل للحياة الدنيا ٠٠ يأمر الله تعالى رسوله أن يذكر المفتونين بها ، الكافرين بالآخرة بمشهد من مشاهد يوم القيامة ، لعل ذلك ينفعهم .

القسم الثالث : عبارة عن (١٠) آيات

من الآية (٥٠) إلى نهاية الآية (٥٩) .

وفيه : تقرير مجموعة الأوامر التى تعالج الأمراض التى تحدثت عنها السورة ، والتى تنبع كلها من موضوع تزيين الحياة الدنيا ، والشيطان هو الذى يزين الحياة الدنيا ؛ فلا ينبغى أن يتخذ ولياً ، وتزيين الحياة الدنيا : يرافقه إعراض عن الآيات ، ونسيان للذنوب ، فلا ينبغى أن يكون إعراض عن الآيات ، أو نسيان للذنوب .

ويتم هذا التقرير : عن طريق خطاب هؤلاء الذين زينت لهم الحياة الدنيا ، فينذرون كرة ، وتقام عليهم الحجة كرة أخرى .

كما يتم فيه : التعليل للهداية والضلال ، ولتأخير العذاب كذلك .

القسم الرابع : عبارة عن (٢٣) آية

من الآية (٦٠) حتى نهاية الآية (٨٢) .

وفيه : قصة موسى والخضر عليهما السلام ، وما فيها من الرزق المعنوى الذى يسوقه الله تعالى – إذا شاء – بغير حساب ، وفيها كذلك : من التأديب والتوجيه والعبرة ، والدروس التربوية ، وتفصيل القضايا الحياتية ، ما لا يحيط به إلا الله سبحانه وتعالى .

القسم الخامس : عبارة عن (١٦) آية

من الآية (٨٣) حتى نهاية الآية (٩٨) .

وفيه : قصة ذى القرنين ، وما فيها من الرزق المادى والمعنوى ، الذى يسوقه الله تعالى – إذا شاء بغير حساب .

وما فيها كذلك : من التأديب والتوجيه والعبرة ، والدروس التربوية ، ما لا يحيط به إلا الله سبحانه وتعالى .

القسم السادس : عبارة عن (١٢) آية

من الآية (٩٩) حتى نهاية الآية (١١٠) .

وفيها : يقرر الله تعالى أن الكافرين يهزؤن من الرسل وآيات الله ، ويبين جزاءهم على ذلك ، كما يبين ما أعد المؤمنين من فضل ، بما يفهمنا به أن المؤمنين فوق الكافرين يوم القيامة .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

السورة غنية بالموضوعات التى تتآزر وتتعانق لتحقيق أهدافها التى ذكرناها آنفاً .

وسوف نمر – بإذن الله تعالى – سريعاً على بعض هذه الموضوعات فيما يلى(٢٥) :

١) ترسيخ أصول العقيدة ، وأركان الإيمان ، ومعالجة الشرك .

ويلاحظ بوضوح : أنها لا تتجه إلى المشركين – كما هى عادة كثير من السور المكية فى هذه المعالجات – بل تتجه إلى أهل الكتاب .

ولذلك : نجد أن السورة لم تبدأ بحرف أو جملة من حروف التهجى ، كما هو الطابع الشائع فى السور المكية ، بل بدأت بجملة {الحمد لله ..} ربما لإظهار هذه التفرقة .

فحول الإيمان بالله تعالى :

نجد {.. قالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دون إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً} [الكهف ١٤] .

وحول الإيمان بالرسل ووظيفتهم :

نجد {وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين} [الكهف ٥٦] .

وحول الإيمان بالكتاب :

نجد {أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً} [الكهف ١] .

وحول الإيمان بالملائكة :

نجد {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه} [الكهف ٥٠] .

وحول الإيمان بالبعث واليوم الآخر

نجد قصة أهل الكهف : خير دليل كمما نجد مثلاً {ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً * وعرضوا على ربك لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتهم ألن نجعل لكم موعداً * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً} [الكهف ٤٧-٤٩] .

وحول الإيمان بالقضاء والقدر :

نجد {ولا تقولن لشئ إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ..} [الكهف ٢٣ ، ٢٤] .

وحول معالجة الشرك :

نجد على سبيل المثال {.. فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً } [الكهف ١١٠] .

٢) القصص القرآنى

وهو من الموضوعات التى تهتم بها هذه السورة فى محاولة جادة قوية لتأييد المؤمنين وتثبيتهم على ما هم فيه .

ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة ، فهو وارد فى إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية هى آيات السورة إلى جانب آيات التعليق أو التعقيب على هذا القصص .

وهذه القصص هى :

١- قصة أهل الكهف (من ٩ - ٢٦) .

٢- قصة موسى مع الخضر (من ٦٠ - ٨٢)

٣- قصة ذى القرنين (من ٨٣ - ٩٧) .

٣) الأمثال .

وقد استخدمت السورة ضرب الأمثال لتبين فيها : أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والجاه والسلطان ، ولا يعلوا الإنسان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة التى دعا إليها القرآن(٢٢) .

وعرضت أمثلة ثلاثة واقعية :

المثل الأول : مثل الغنى المكاثر بماله ، والفقير المغتر بعقيدته وإيمانه (من ٣٢ - ٤٤) .

قال تعالى {واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ...} الآيات [الكهف ٣٢-٤٤] .

المثال الثانى : مثل الحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال بعد تلك الزينة التى خدعت الكثيرين من الناس ...

قال تعالى {مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدراً} [الكهف ٤٥].

المثل الثالث : مثل التكبر والغرور مصوراً فى حادثة إبليس اللعين وما أصابه من الطرد والحرمان جزاء تكبره واستعلائه على أوامر الله .

قال تعالى {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً}(٣) [الكهف ٥٠] .

٤) عرض بعض مشاهد القيامة

ونكتفى بهذين المشهدين :

الأول :

فى قوله تعالى {٠٠ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً * وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً * الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ٠٠} [الكهف ٩٩ ، ١٠٠] .

الثانى :

فى قوله تعالى {ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتهم أن لن نجعل لكم موعداً ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً}(٢) [الكهف ٤٧-٤٩] .

إجمال ما تضمنته السورة من الأغراض والمقاصد

(١) وصف الكتاب الكريم بأنه قيم لا عوج فيه ، جاء للتبشير والإنذار .

(٢) ما جاء على ظهر الأرض هو زينة لها ، وقد خلقه الله ابتلاء للإنسان ليرى كيف ينتفع به .

(٣) ما جاء من قصص أهل الكهف ليس بالعظيم إذا قيس بما فى ملكوت السموات والأرض .

(٤) وصف الكهف وأهله ، مدة لبثهم فيه ، عدد أهله .

(٥) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالجلوس مع فقراء المؤمنين وعدم الفرار منهم إلى أغنيائهم إجابة لدعوتهم .

(٦) ذكر ما يلاقيه الكفار من الوبال والنكال يوم القيامة .

(٧) ضرب مثل يبين حال فقراء المؤمنين وأغنياء المشركين .

(٨) ضرب المثل للحياة الدنيا .

(٩) عرض كتاب المرء عليه فى الآخرة وخوف المجرمين منه .

(١٠) عداوة إبليس لآدم وبنيه .

(١١) قصص موسى والخضر .

(١٢) قصص ذى القرنين وسد يأجوج ومأجوج ، وكيف صنعه ذو القرنين .

(١٣) وصف أعمال المشركين وأنها ضلال وخيبة فى الآخرة .

(١٤) ما يلقاه المؤمنين من النعيم فى الآخرة .

(١٥) علوم الله تعالى لا نهاية لها .

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

فوائد السورة عديدة ، وعبرها كثيرة ، ومنافعها عظيمة .

وسوف نكتفى بذكر هذه الفوائد(٢) :

١)فى قوله تعالى {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم حسن عملاً} [الكهف ٧ ، ٨] .

ذكر ابن كثير الحديث الشريف .

(إن الدنيا حلوة خضيرة ، وإن الله مستحلفكم فيها ، فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء) .

٢) فى قوله تعالى {ولا تقولن لشئ إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله} [الكهف ٢٣ ، ٢٤] .

تفيد هذه الآية الكريمة(٢٢) : أن كل حركة وكل سكون ، بل كل نفس من أنفاس الحى ، مرهبون بإرادة الله ، وعقل الإنسان قادر كليل ، فلا ينبغى أن يقول الإنسان : أنى فاعل ذلك غداً ، وغداً فى غيب الله ، وأستار غيب الله لا يكشفها أحد.

وليس معنى هذا : أن يقعد الإنسان ، لا يفكر فى أمر المستقبل ولا يدبر له ٠٠٠ الخ .

ولكن معناه : أن يحسب حساب الغيب ، وحساب المشيئة التى تدبره ، وأن يعزم وهو يستشعر أن يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره ، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم : فيها ، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يجزن ولم ييأس ، لأن الأمر لله أولاً وأخيراً .

وهذا تسليم لله : يمده بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة .

فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير لله غير تدبيره : فليتقبل قضاء الله بالرضى والطمأنينة والاستسلام ، لأنه الأجل الذى كان مجهولاً له فانكشف عنه الستار .

وهذا هو النهج الذى يأخذ به الإسلام قلب المسلم .

فلا يشعر بالوحدة والرقة وهو يفكر ويدبر .

ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح .

لا يستشعر القنوط واليأس وهو يفشل ويخفق .

بل يبقى فى كل أحواله متصلاً بالله ، قوياً بالاعتماد عليه ، شاكراً لتوفيقه إياه ، مسلماً بقضائه وقدره ، غير ٠٠٠ ولا قنوط .

٣) فى قوله تعالى {ولولا إذ دخلت قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله} [االكهف ٣٩] .

يذكر الإمام ابن كثير : أن بعض السلف فهموا من هذه الآية ، إن تحصين النعم يكون بهذه الكلمة(٢٤) .

قال :

ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شئ من حاله أو ماله أو وحده : فليقل: {ما شاء الله لا قوة إلا بالله} [الكهف ٣٩] .

وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة .

روى الحافظ أبو يعلى فى مسنده ٠٠ عن أنس رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل مال أو ولد ، فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت) .

٤)فى قوله تعالى {ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها} [الكهف ٤٩] .

روى الطبرانى عن سعد بن جنادة قال :

لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة جنين ١٠!

نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شئ ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم (اجمعوا ، من وجد عوداً : فليأت به ، ومن وجد حطباً أو شيئاً : فليأت به) .

قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم (أترون هذا) ؟

فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم ، كما جمعتم هذا ، فليتق الله رجل ، لا يذنب صغيرة ولا كبيرة ، فإنها محصاة عليه) .

٥) يقول المرحوم الأستاذ سعيد حوى :
بدأت سورة الكهف : بتعليمنا "الحمد" على نعمة هذا القرآن ٠٠ !!
فمن لم يصل إلى الشعور بنعمة الله عليه بهذا القرآن : فهو لم يأخذ درسها الأول .
ثم بينت لنا : بعض خصائص القرآن ، وخاصة موضوع براءته من العوج واستقامته ٠٠ !!
فمن لم يستشعر هذا المعنى فى القرآن كله : فاته الدرس الثانى .
ثم بينت : أن أسلوب هذا القرآن فى العرض ، هو التبشير والإنذار ٠٠!!
فمن لم يذهب هذا المعنى ، ويتفاعل معه ، ويعرف حكمة الله فيه : فاته الدرس الثالث .
ثم بينت : الحكمة فى تزيين الحياة الدنيا ، وهى الاختبار ٠٠ !!
فمن لم ينجح فى الاختبار ، بأن يحسن العمل بالدخول فى الإسلام ، واجتناب خطوات الشيطان : فاته درسها الرابع .
ومن لم يعرف قصة أهل الكهف ، ومحلها بالنسبة لمجموع آيات الله : فاته درسها الخامس .
ومن لم يشكر الله على ما أعطاه من نعم الدنيا ، ويتعامل مع أهل الدنيا بمنطق المذكر الواعظ : فاته درسها السابع .
ومن لم يزهد فى الدنيا ، ويعرف حقيقتها : فاته درسها الثامن .
ومن لم يجتنب خطوات الشيطان : فاته درسها التاسع .
ومن لم يتأدب مع الله بالأب مع أنبيائه وأوليائه ، بأن يعرف كرم الله فى العطاء ، فلا يحتقر من أنعم الله عليه بنعمة علم لدنى ، بل يحترمه ويستفيد منه ٠٠!!
فمن لم يفعل ذلك : فاته درسها العاشر .
ومن لم يعرف : أن الله يعطى الدنيا لمن شاء ، فيسخر له ما شاء : فاته درسها الحادى عشر .
ومن لم يعرف : أنه لا ولاية بين الكافرين والمؤمنين ، وأن المنحرفين عن أمر الله : هم الأخسرون ، وأن علم الله : لا يتناهى ، وأن الرجاء : يحتاج إلى العمل الصالح والإخلاص ٠٠!!
فاتته دروس السورة الأخيرة .
ثم قال رحمه الله :
إن السورة : تربى مشاعر أهل الإيمان فى أهم قضية تواجههم ليلاً ونهاراً.
وهى قضية ما على هذه الأرض من زينة الحياة الدنيا ، وكيفية التعامل مع الخلق فى هذا الموضوع ، وكل ما له علاقة فيه .

ثاني عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

١-أنظر :السخاوى .. جمال القراء ٢٣٧/١
الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٧٩/١
السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧)
الآلوس .. روح المعانى (السورة ١٨)
القاسمى .. محاسن التأويل (" ")
٢- أنظر : الفيروزابادى .. مصدر سابق
٣- أنظر : السيوطى ، الآلوس مصادر سابقة .
القاسمى
٤- " : القاسمى مصدر سابق
٥- " : السيوطى " "
٦- " : مكى التبصرة ص ٢٤٧
السخاوى جمال القراء ٢,٦/١
الفيروزابادى بصائر .. ٢٩٧/١
الآلوس روح المعانى (السورة ١٨)
نثر المرجان ٩٨/٤
٧-طبرى .. جامع البيان ١٩١/١٥
٨- أنظر : الطبرى .. جامع البيان (س : ١٨)
القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (س : ١٨)
ابن كثير .. تفسير القرآن العظيم (" ")
٩- الشيخ/المراغىتفسير المراغى (" ")
١٠- أنظر ذلك بتوسع فى : القرطبى ، .. مصدر سابق
ابن كثير مصدر سابق
السيوط ى الاتقان ١١/١.
الشوكانى فتح القدير (س : ١٨)
١١-البخارى : ك . فضائل القرآن ، باب فضل سورة الكهف .
١٢-الترمذى : ك .. فضائل القرآن ، باب فضل سورة الكهف .
١٣- مسلم : ك .. المسافرين ، باب فضل سورة الكهف .
١٤-الدارمى : ك .. فضائل القرآن ، باب فضل سورة الكهف .
١٥- القرطبى – الجامع لأحكام القرآن (س : ١٨) .
١٦- ابن كثير .. تفسير القرآن العظيم (تفسير سورة : ١٨) .
١٧- السيوطى – الاتقان ١١/١.
١٨- نقلاً عن كتاب (الأساس فى التفسير) تفسير سورة الكهف
١٩- أنظر : الآلوس .. روح المعانى ، المراغى .. تفسير المراغى (مصادر سابقة) .

٢٠- الآلوس .. روح المعانى (تفسير سورة الكهف) .
٢١- رشيد رضا .. تفسير المنار (تفسير سورة الكهف) .
٢٢- سيد قطب .. فى ظلال القرآن (تفسير سورة الكهف) .
٢٣- د/ محمد البهى .. تفسير سورة الكهف ص ٣ وما بعدها .
٢٤- سعيد حوى .. الأساس فى التفسير (سورة الكهف) .
٢٥- أنظر : المراغى ، سيد قطب ، د/ البهى (مصادر سابقة) .
٢٦- أنظر : سيد قطب ، سعيد حوى (مصادر سابقة)

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر